

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

الدعامة الثالثة :

قد يقتنع الناس بحاجتهم الماسة إلى التقييد بتشريع معين في جانب معين ، وبأن السلطة التي صدر عنها هذا التشريع هي سلطة ذات حق مسلم به في إصداره وتنفيذه ؛ وبهذا وذاك يتبها لهذا التشريع عاملان من عوامل تقبله وارتياح النفوس إليه ، والنزول على حكمه .

ولكن هناك عاملاً ثالثاً لا بد منه في استقرار هذا التشريع ، وبقاءه محترماً ، وعدم تعرضه للعواصف النفسية التي من شأنها إذا ثارت أن تقتلع القوانين ، وتطيح بالنظم . هذا العامل دو ما نعينه « بالدعامة الثالثة » ، من دعائم الاستقرار في التشريع القرآني ؛ وهو إقناع المكافين بأن القيود التي أتى بها هذا التشريع قد جاءت على قدر الحاجة دون شطط ولا إسراف ، وعلى قدر الاستطاعة دون تعجيز ولا إعنات .

وقد عنى القرآن الكريم أشد العناية ببيان أمرين عليها تقوم جميع التكاليف الإلهية ، وفي دائرتيها كانت جميع الواجبات الإنسانية :

أحدهما : كون الشريعة وسطاً ، أو « صراطاً مستقيماً » .

والثاني : بحج التكاليف في حدود الاستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه « أهل الشرع » بـ « بنى الحرج » .

فأما كون الشريعة الإسلامية وسطاً ، فهو ظاهر فيما كلفنا به من العقائد ، وفيما كلفنا به من العبادات ، وفيما رسم لنا من قواعد السلوك الاجتماعي المعبر عنه في الفقه ، بالمعاملات . .

١ — فن ذلك : أن العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله ، قائمة على وصفه تعالى بكل جميل ، وتنزيهه عن كل قبيح ، وقد أمرنا بأن نفكر في آثار الله ، ولم نؤمر — بل نهينا — أن نفكر في ذات الله : لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصريف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا ، وأن نسيح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضللاً أو نخاف تها : أما ذات الله فهي فوق العقول التي ألقت التقدير والتكييف ، والتحديد والقياس والتشبيه .

هذه العقيدة في جانب الألوهية كافية للإيمان ، ولو أن امرأً لقي ربه وهو يعلم أنه إله واحد قادر متصف بجميع صفات الكمال ، منزّه عن جميع صفات النقص ، لكان إيمانه عند الله مقبولاً .

وقد ركب متن الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بمقولهم في هذا المجال ، إذ حسبوا أنهم قادرون على إدراك ذات الله وكنه صفاته ، وعقدوا ما شاءوا بين الذات والصفات من نسب ، واختلفوا في أن الثانية هي عين الأولى أو غيرها ، وفي أنها قائمة بها أو مستقلة عنها ، وفي أنها قديمة بقدمها أو لا كقدمها ، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التي شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس ، وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن ، وهم في ذلك إن لم يشبهوا فقد قاربوا ، وقالوا على الله بغير علم ، كما زعم الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ، أو الذين قالوا : الملائكة بنات الله . فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله ، ويحاول أن يتصور الألوهية تصوراً مادياً ، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ، ولم يعلم على وجه يصح ما هي ولا كيف هي ؟ ١

كما ركب متن الشطط قوم تناسوا الله وخلقهم وتصريفهم وقدرته ، فزعموا أن هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، كذلك وجدت ، وكذلك مستظل حتى يصادفها الفساد ، ويدركها نوع من الخلل في النسب والمقاييس .

اشتط هؤلاء وهؤلاء ، ووقف كل منهما في جانب الألوهية على طرف منافض : قوم يؤمنون بالإله ولكنهم يقحمون عقولهم فيما ليس لها طاقة به من معرفة كنهه وحقيقته ، وقوم يسكفرون به وينكرونه وتعمى قلوبهم عن آياته وآثاره : والقرآن الكريم ينادى أولئك وهؤلاء أن الهدى غير ما تزعمون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

يقول الله عز وجل في حض العباد على التفكير في خلقه وآثاره وماله من تصريف وتدير : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الألباب » ، « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ، « فانظروا كيف بدأ الخلق » ، « انظروا إلى ثمره إذا أثر وينعه » ، « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » ، « قل سيروا في الأرض ثم انظروا » ، « وفي أنفسكم أثبات بصرون » .

ويقول الله عز وجل في وصف نفسه ، وإعلام المخلوقين بأنه فوق ما يعقلون وما يدركون : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة : وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لاتدرکه الابصار وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير . .

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشيء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه ، وإنما هو يلفت دائماً إلى آثار الله في الخلق والتصرف .

وقد قص الله علينا ما كان من نقاش بين نبيه موسى عليه السلام ، وفرعون حين أعلنه بأنه مرسل من رب العالمين ، فأراد فرعون أن يمكر به ، وأن يقحمه في ورطة لا خلاص له منها : « قال فرعون : وما رب العالمين » ، سأل عن حقيقة الرب ، لأن السؤال بما ، لطلب الحقيقة ، فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول محالا ، وأثار على نفسه نقاشاً وجدالاً ، ولو سكت عن الجواب لبان عجزه ؛ ولكن

موسى رد على فرعون رداً حكيماً ، قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، فكأنه قال له : ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته ، فذلك فوق عقلك وفوق قدرتك وفهمك ، ولكن سل عن آثاره تعلم أنه رب كل شيء في السماء والأرض وما بينهما خلقاً وتصريفاً وحكماً وعلماً . وهذا هو الجواب الحق ، لأن ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى يستحيل أن تعرف بالماهية التي تستدعي التركيب من الأجزاء ، فلم يبق إلا أن يعرف بآثاره وأفعاله ؛ وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل : « قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ ، يعنى فلتعجبوا له : أنا أسأله عن الماهية والحقيقة ، وهو يجيبني بنسبة الآثار إليه خلقاً أو تصريفاً . وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر : « قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، وفيه أيضاً معنى لفته إلى عدم إمكان السؤال عن الذات ، مع انتقال إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أقرب وضوحاً من الأول ، لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول ، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهو أقرب قبولاً ، وليس من السهل إنكاره . ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال ، واشتد في هذه المرة ما لم يشتد في المرة السابقة : « قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، أى فهو لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب . وهنا أجابه موسى بأثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحاً وجلالاً : « قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » . فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار ، والمغرب يشير إلى غروبها ومجيء الليل ؛ وهذان أمران دائماً مستمران لا شك أنها عن تدبير وقدرة من مدبر قادر .

في هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون ، وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والإضلال ، على اقتحام ما لا يقتحم ، ومحاولة البحث عما لا سبيل إلى معرفته ، ليتخذ ذلك سبيلاً إلى الفتنة والشك ، وإلقاء الريب في النفوس المستعدة بطبعها للإيمان ؛ ويظهر لنا إصرار موسى ، وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية ، على صرف الحديث عن ذلك المقتحم الصعب ، والاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته ؛ وهذه ولا شك سبيل المؤمنين ، وهى سبيل وسط بين المبالغين في تصور الألوهية كما تتصور المادة ، والمبالغين في إنكارها مع وجود آثارها ، ووضوح أفعالها وتدبيرها .

فهذا مثال من التوسط في العقيدة ؛ ولنا غيره من المثل لو أردنا استقصاء
لما اتسع لنا مجال هذه المقالات ، ولكننا نشير الى بعضه :

٢ — فن ذلك عقيدة الإسلام في التوسط بين الزاعمين بأن الإنسان مجبور
ظاهرا وباطنا ، والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه دون دخل لله .

في القرآن آيات يستدل بها هؤلاء ، وآيات يستدل بها هؤلاء ، والنقاش
والجدال بينهما طويل ؛ ولكن المتأمل المنصف الخالي من التعصب يستطيع أن يعلم
الحق ، وأن يراه واضحا في كتاب الله ، كما هو واضح في الواقع .

بيان ذلك : أن كلاً منا يشعر في نفسه بأمرين لا يستطيع أن يجادله فيهما
مجادل : أحدهما : أنه فاعل متصرف يأتي الشيء بإرادته ، ويمتنع عنه بإرادته ،
فن قال إنه مجبور على الأفعال كالريشة في مهب الريح فقد أنكر هذا الإحساس ؛
والثاني : أنه مع ذلك تحيط به ظروف وأسباب في الكون والمجتمع ، خارجة
عن إرادته ، ليس له في تكييفها تأثير ، وهذه الظروف قد تعطل إرادته في بعض
الاحيان فلا يتم تنفيذها ، وقد تلائم هذه الإرادة فتم ؛ فإذا نظرنا إلى هذه
الظروف وتلك التأثيرات الخارجة عن إرادة الإنسان ، والتي لها حظ
في التمام أو عدم التمام ، كان لنا أن نعتبر أن إرادة الإنسان ليست هي كل شيء ،
وأنه لا يتم بمجرد حصول شيء من الأشياء أو عدم حصوله ؛ ولما كانت
هذه الأسباب ، أو هذه الظروف ، ليست من صنع فرد أو أفراد ، أو هي منتبهة
إلى أن تكون كذلك ، وأن ترجع إلى الخالق جل وعلا ، علمنا أن للعبد جانبا
من الفعل والإرادة ، وأنه مسوق فيما وراء هذا الجانب بقوى ، وخاضع
لأسباب من صنع الله .

على أن إرادة الإنسان فعل شيء من الأشياء لا تأتي ارتجالا ، وإنما تتكون
حسب التأثيرات المحيطة به أيضا ، وربما كان لإرادة الغير تحكم فيها من حيث
لا يشعر الإنسان .

فالحاصل : أن الإنسان فاعل مختار ، ولكنه في نفس الوقت مقيد
بما يشعر به وما لا يشعر به من القيود التي تفرضها الظروف والأسباب
والأحوال المحيطة به ؛ فالأمر في شأنه وسط . وبمثل هذا نفهم معنى قوله تعالى :

« والله خلقكم وما تعملون ، حيث أسند الفعل للعبد والخلق الله ؛ فالعبد مباشر ،
واقه هو المهيء لأسباب تلك المباشرة ، ولولا تهيئته لم تتم . وكذلك نفهم مثل قوله
تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ، وقوله « إن ينصركم الله فلا غالب
لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » ، ونفهم لماذا نفعل الفعل ونسأل
الله فيه التوفيق .

٣ — كما يفيدنا ذلك أيضا في إدراك معنى التوكل الصحيح الذى هو مزيج
من الثقة بالله والتوجه إليه ، والتماس الأسباب والسمى لها ؛ فالتوكل الصحيح
توسط بين الذين يعتقدون أن الأمر كله للأسباب والأمر المادية ، والذين
يظنون أن التوجه الى الله يقتضى إبطال السعى والعمل .

٤ — ومن الأمثلة التى تدل على أن ما جاء به الإسلام من العقائد وسط ،
منهج الحذاق فى الإيمان بالغيب ، حيث يتوسطون فلا ينكرون شيئا ورد عن
المعصوم ، ولو خالف بظواهره العقل ، ولا يتوسعون فيؤمنون بتفاصيل لم ترد
عن طريق صحيح كما يفعل الجاهلون والمسرعون الى تصديق كل ما يروى دون
فحص ولا تثبت .

الى غير ذلك من المثل التى نرى فى القرآن توضيحا لها وتبينا ، ولا يتسع
المجال لبسطها والإفاضة فيها .

وكما يقال هذا فى العقائد الإسلامية ، يقال فى العبادات التى كلفنا الله بها ،
والمعاملات التى رسم لنا طريق السلوك فيها .

فالصلاة : انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى ، ولكن فى أوقات
مناسبة محصورة ، بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعماله ونشاطه ، ولا
ينخرط فيها انخراطا كلياً فتظلم نفسه ، ويتبلد حسه . والصوم ليس حرمانا كاملا
بالليل والنهار ، أو قصر ا على بعض المباحات دون بعض ، وإنما هو حرمان وبقى
لمدة ساعات محدودة ، لك بعدما أن تناول كل ما تريد من المباح ، وأن تلبس
ما أحل الله لك ، فيجتمع لك من هذا وذاك تربية الروح ، وتليية الجسم .

وقل مثل هذا في الزكاة ، والحج ، والنكاح ، والطلاق ، وحل البيع ، وحرمة الربا ، والاعتراف بالحرب مع النهي عن الاعتداء ، والأمر بأخذ الحذر مع النهي عن الإسراف في التنظيم ، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه ، وإباحة الانتصار للنفس مع الترغيب في جانب العفو ، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى به ، وكانت سنة الإسلام فيه التوسط ، دون ميل الى جانب التفريط ، أو جنوح الى ناحية الإفراط .

والقرآن الكريم يعبر عن هذا المبدأ الذي تظهر آثاره في كل تشريع بمثل قوله ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، ، كالأوامر بوجوب ولا تسرفوا ، ، وكان بين ذلك قواما ، ، إنه لا يحب المسرفين ، ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، ، إن الله لا يهدي من هو مسرف ، ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، ، لا تظلمون ولا تظلمون ، ، لا تضاروا والدة بولدها ولا مولود له بولده ، ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، ، ولكم في القصاص حياة ، ، يأيتها الذين آمنوا خذوا حذركم ، ، ولا تقولوا لمن أتى إليكم السلام لست مؤمنا ، ، ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغفون في الأرض بغير الحق ، ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ، .

• يتبع ،

الى غير ذلك من الآيات ؟

استعطاف

كتب النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بالمرأق في الجاهلية يتنصل إليه عما بلغه عنه من أبيات :

فإن أك مظلوما فعبد علمته	وإن تك ذا عتب فذلك يعتب
حلفت فلم أترك لنفسك رية	وليس وراء الله للرم مذهب
لئن كنت قد بلغت عني جناية	لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ألم تر أن الله أعطاك صورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

عدة المؤمنين

في وقت الحرج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ المعهد فؤاد الأول بأسبوط

لا يخلو إنسان في هذه الحياة التي ملئت بالكوارث والحروب والنوازل والخطوب، من هم يقض عليه المضاجع، أو شجن يستثير المدامع، أو حشرات تنم عنها في الغالب الزفرات؛ غير أنهم متفاوتون في أشجانهم، متباينون في أحزانهم؛ هذا يبكي الطلول التي خلعت من أقمارها، ويندب أحبابا كانوا كالزهور في أكمامها، وذاك بنوح على فلذة كبد طواها الردى وضما الثرى، وآخر تهيج به ذكريات حسب ضاع ونسب أبيد؛ وغير هؤلاء وهؤلاء من ليس على غرارهم أزججه أن غاض معين الوفاء، ونضب سلسيل الهناء، يذكر الأصدقاء وخيانتهم، والأبناء وعقوقهم، ويسكب الدمع السخين في إثر أمل ضائع، وأمانى صارت كالسراب. وهناك رجل آخر يقول: ما بال هذا الزمان أضيق رزقا، وأنضب حياء، وأفسد خلقا، وأقل سعادة وأنسا، أبرما بتساوة الحياة، وفرارا من جمود الواقع. يضعف عن احتمال الشدة، ويضيق ذرعا بمرارة العيش. وليس كل أولئك بذوى أشجان، عند الباحث الفيلسوف، الذي يستشف هواجس النفوس، وينظر من وراء حجاب إلى خلجات الضمائر، وإن كانوا خليقين بهذا الاسم في نظر العواطف؛ بل الحقيق بأن يكون ذا شجن في نظر الفيلسوف، ذلك الشخص الذي يقلب الدهر له ظهر المجن، في كل خطوة يخطوها، فكلمها بنى صرحا لوطنه، هدمه الزمن، وكلما وضع لبنة في سبيل هناء الجماعة، ذهب بها الأيام، وأتت عليها. وكذلك الشخص الذي يكون مطمح النفوس، وموئل الرجاء، فيخيب أمل الناس فيه، ويتلاشى رجاؤهم عنده؛ هو أيضا حرى بأن يسكون من ذوى الأشجان، في نظر الباحث الفيلسوف.

وإذا كان قد قدر لكل قلب أن يأخذ نصيبه من آلام الحياة وأشجانها، فقد قدر للأمم أيضا هذا النصيب، وهي لها مكانها بين الزعازع. وفي تقلبات الأيام، وحوادث الزمن صور شتى لتلك المآسى بين الأمم، هي أدلة يقينية على أنها لا تمتاز عن الفرد إلا في الشكل، لا في الموضوع.

وقد أنشأ الله الحياة الدنيا لتكون دار محنة وبلاء لعباده جميعا حتى الانبياء أخذوا من المحن والبلايا بنصيب، فجاهدوا الباطل، وجاهدوا أهل العناد؛ دعوتهم الحق، والحق على أولئك ثقل، وعدتهم الصبر، والصبر قليل.

فلا غرو إذا عاشوا غرباء في الأرض، لأنهم من السماء، وكانوا أمثلة لبؤس العيش، لأنهم مثل عليا للمواعظ والعبر؛ ومصدق ذلك قول الله عز وجل في الكتاب الحكيم، مخاطبا المؤمنين «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم: مستهم البأساء والضراء، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب». على أن ضيق الرسل بالشدائد لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من صفات البشر، وما جبلوا عليه من غرائز الإنسان، ولكن لا تلبث آلامهم أن تتلاشى، ووقع الخطوب على نفوسهم أن يهين، حين أشع على قلوبهم ما فيهم من قوة الروح، وما بين جوانبهم من قوى اليقين.

وقد رسم الله لعباده المؤمنين طريقا يسلكونه في وقت الشدائد، ويلوذون بكنفه في المحن، ويلجئون إليه إذا عبس الدهر أو تسكر الزمن؛ طريقا معبدا غير ذي عوج، وسبيلا ممهدا لا يحتاج لاكثر من نقطة الضمير وانتباه النفس والإحساس الصادق السليم؛ فالمؤمن الحق يحمل بين جنبيه عقيدة صادقة، تهدي البصر، وتنير البصيرة، وتحول بينه وبين المخالفة والعصيان، وتغرس في الغرائز النفسية القوة والصلابة، فلا يتبرم بخطب، ولا يهن عند شدة.

على أننا لو منحننا فصاحة سحبان، أو بلاغة الأيادي، ما كان في مكنتنا حصر الآثار الكريمة لعقيدة الإيمان، ولا الإتيان على ما تلده من فضائل. فلنكتف إذا بسرد بعض تلك الآثار، وعرضها في صور محدودة، وهي إذا تمت للمؤمن، لقي الشدائد بقلب المطمئن الآمن، وتحمل الأزمات بصبر أولى العزم، نخدم أمته ووطنه، في وقت الحرج.

فن سلاح المؤمنين في وقت الحرج : الإقلاع عن الذنوب ، واتقاء المخالفة ، وتطهير النفس من دخائل الحقد والضغينة ، والإجابة إلى الله ، والرجوع إلى حمائه ، واستدراك ما فات من القصير ، فإن الشدائد أغلب ما تكون جزاء عن المعاصي ، والغفلة عن عقاب الله : « إن الله لا يُغَيِّر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ، ومن عدة المؤمن في وقت الشدة ، ومن ذخائره في الأزمات : الصدق ، الذي يقول فيه الرسول الكريم : « تحروا الصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وإن المرء ليتجرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقاً » .

وقال الأحنف بن قيس لابنه : يا بني ! يكفيك من شرف الصدق أن الصادق يقبل قوله في عدوه ؛ ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يقبل قوله في صديقه ولا عدوه .

قيل : مرَّ عمر بن الخطاب بمجوز تبيع اللبن ، فقال : يا مجوز ! لا تغشى المسلمين ، ولا تشوب لبنك بالماء . فقالت : نعم يا أمين المؤمنين . ثم مر عليها بعد ذلك فقال : يا مجوز ! ألم أعهد إليك أن لا تشوب لبنك بالماء ؟ فقالت : والله ما فعلت يا أمير المؤمنين . فتكلمت بنت لها من داخل الحباء ، فقالت : يا أماء ! أغشا وحنثاً ؟ فسممها عمر ، فأعجبته ، وقال لولده : أياكم يتزوجها ، فلعل الله أن يخرج منها نسمة طيبة ؟ فتزوجها ابنه عاصم ، فكان من ذريته سيدنا عمر بن عبد العزيز .

فالصدق في كل الأحوال حسن ، طيب الأثر ، وهو في وقت الحرج أنسب بالمؤمن ، وألحق بعقائد المؤمنين ؛ فالمؤمن يصدق في القول ، فلا يكذب ، ولا ينشر الإشاعات الكاذبة ، التي ترهف الأعصاب ، وتهيج النفوس الآمنة ، وتجنّي على الأمة والوطن البلايا ، من الخوف والذعر ، والفوضى والاضطراب .

فالذي يكون سبباً في حصول هذه الزلزلة ، يكون عضواً فاسداً في الأمة ، يجب بتره ، لتوفر للأمة طمأنينتها ، ويجتمع لها الاستقرار والأمان .

ويصدق المؤمن في الفعل فلا يفش المسلمين ، ولا يخونهم ؛ ويصدق في السلوك ، فيكون مظهره عين مخبره ، وعلته ترجمان سره .

ومن ذخائر المؤمنين في وقت الحرج : اتحاد الكلمة ، وحم الصفوف ، لتلقى الامة الخطب بجمود بنيتها ، ولتكون كتلة واحدة في الشدة ، فلا تنقسم لها عروة ، ولا يفك العدو ما بين بنيتها من أواصر الدين ، ووشائج الوطنية . عند ذلك تسير أعمالها في طريق الإصلاح العام ، ويكثر إنتاجها للخير البلاد ، وسعادة العباد . فعلى قادة الامة وذوى رأى فيها ، أن يعملوا على ذلك بما أوتوا من قوة ، فقد جد الجد ، واشتد الكرب ، وما من عار أن يضحي الشريف الكريم ، والزعيم العظيم ، ببعض وقته ، في سبيل هذا المقصد النبيل ، وأن تتصافى القلوب ، وتتساقى النفوس كثوس الحب الخالص ، ليكون لهم في صفحات التاريخ الأثر الخالد ، والذكرى التى يفوح عبرها على مر الدهور ، وكر السنين ، وينقلها الجيل بعد الجيل .

ومن عدة المؤمنين في وقت الحرج : حسن القدوة .

أجل ! فإن حسن القدوة بليغ الأثر في وقت الشدة ، وما هو الزمان زمان شدة والعصر عصر قحط وبلاء ، يلاقى فيه العامل البسيط ، والفلاح الكدود ، شظف العيش وخشونته ؛ غلّت الاقوات ، وضنت السماء بالماء ، وبخلت الأرض بالثماء ، فارتفعت الأسعار ، وطمع التجار ، فقاسى الفقير من الشدة ما أثقل كاهله ، وأحنى ظهره ، وهو ينظر إلى بعض مواطنيه وهم يسرفون في الكاليات ، ويبالغون في النوافل والزيادات ؛ ولو أنهم أحسنوا إلى أبناء وطنهم ، لشاركهم في خشونة العيش ، ولو بقدر ؛ أو حكموا الدين والاخلاق ، لو أسوهم في بأسائهم ، في كل نارلة . فقد كان كبار المسلمين في العصر الأول ، قدوة حسنة لارعية ، ومظهراً صادقاً لحسن الأسوة .

فقد لبس عمر رضى الله عنه المرقع من الثياب ، وأكل خبز الشعير من غير إدام ؛ وعمر إذ ذاك يجي إليه خراج : العراق ، والحجاز ، ومصر ، والشام ،

وما إلى ذلك ينضم ؛ وتدفق إليه كنوز فارس والروم ، على يد أبطال الإسلام الفاتحين . فكان فعله هذا أخذاً بقلوب الرعية ، مستولياً على مشاعرهم ، فكانوا لذلك لا يضعفون عند خطب ، ولا تلين قناتهم لشدة ؛ فكان عمر بسيرته سائس أمم ، ومربي دول ، وراعي ممالك .

قالوا : استعمل عمر على حمص ، عمير بن سعيد ، ؛ فلما مضت السنة ، استدعاه فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه عمير ، ماشياً ، حافياً ، عكازته بيده ، وإداوته ، ومروده ، وقصعته على ظهره ؛ فلما نظر إليه عمر ، قال : يا عمير ! أأجدبت البلاد ، أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : ولمه ، يا أمير المؤمنين ، وقد جئت إليك بالدنيا ، أجرها بقرابها ؟ فقال له عمر : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامي ، وإداوة أحمل فيها ماء شرابي وطهوري ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي . فقام عمر إلى قبر الرسول ، وقبر أبي بكر ، فبكى ساعة ، ورجع إلى عمير ، فقال : ما صنعت في عملك يا عمير ؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الجزية ، عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، ولو ممي شئ لآحضرتك إليك . فقال له عمر : عد إلى عملك يا عمير ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ناشدتك الله ، إلا رددتني إلى أهلي . فأذن له عمر ، وأرسل خلفه من يعرف جليته أمره ؛ وإذا بعيشه في أهله ، خبز الشعير ، فرفع الرجل إلى عمير مائة دينار ، كان قد بعث بها عمر إليه ، فصرفها في الحال في إخوانه الفقراء ، فرجع الرقيب إلى عمر يقول : جئتك من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير . فكان عمير هذا صورة صادقة لزهد الولاة ، وحسن سياستهم في الرعية . وكان في مقاله لعمر أفصح واعظ ، وأبلغ مذكر .

فيمثل هؤلاء تسعد الأمم ويكثر رجاؤها ، وتؤمن الفتن والزلازل . فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ومن الفضائل التي يلجأ إليها المؤمن في وقت الشدة : الصبر ، والصبر ملاك الخير في كل النواحي ، وعنوان الرجولة الكاملة ، وما المخترعات إلا بالصبر . فالصبر مطية لا تكبو وإن عنف عليها الزمان ، فهو مطية النصر والظفر ؛ ولذا

يقول القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . . فَاثْبُتُوا مَعَ الصَّابِرِينَ فِي الشَّدَائِدِ يَعِينُهُمْ ، وَيَشُدُّ أَرْصَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ انْتَظَرُوا النَّصْرَ مِنْهُ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ فِي عَقَبِ أَمْرِهِمْ ، وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَأْنِهِمْ .

وفي قصة غزوة بدر في القرآن الكريم ، ما يشير إلى نتائج الصبر ومكانة التقوى ، من أنها بشير النصر ، إذ يقول جل وعز : « وَلَقَدْ فَصَّرْنَاكُمْ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ، إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ بِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَيَقُولُ : « إِنْ تَتَّبِعُونَ هَذِهِ سَبِيلَهُمْ ، وَإِنْ تَصْبِرُوا سَبِيلَهُمْ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالتَّقْوَى مَجْرَدُ امْتِنَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي ، بَلْ هِيَ هُنَا أَوْسَعُ بِحَالًا وَأَرْحَبُ فَنَاءً ، وَأَعَمُّ دَائِرَةً . إِنَّهَا وَالْحَيَاةَ حَيَاةُ جِهَادٍ ، تَشْمَلُ اتِّقَاءَ الْوَسَائِلِ الْمُنَافِيَةِ لِلْحَيَاةِ الرَّاقِيَةِ ، اتِّقَاءَ وَسَائِلِ الْخُزْيِ وَالْعَارِ ، اتِّقَاءَ وَسَائِلِ التَّدَهُّورِ فِي الْجَمَاعَةِ وَالْفَرْدِ .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : عَقَمَتِ النِّسَاءُ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَلْعَدَى بِهِ يَوْمَ صَفَيْنَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ بِيضَاءُ ، وَهُوَ يَقِفُ عَلَى شَرِذْمَةٍ مِنَ النَّاسِ يَحْضُرُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى وَأَنَا فِي كَيْفٍ مِنَ النَّاسِ ، وَفِي أُغْيَلَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اتَّجَلَّبُوا السَّكِينَةَ ، وَأَكْمَلُوا اللَّامَةَ ، وَأَفْلَقُوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ ، وَكَأَخُوا بِالْظُّبَا ، وَصَلُّوا السُّيُوفَ بِالْخَطَى ، فَإِنَّكُمْ بَعِثَ اللَّهُ . عَاوَدُوا السَّكْرَ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرَسِ ، فَإِنَّهُ عَارٍ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ فِي الْحِسَابِ : وَطَيَّبُوا عَلَى الْحَيَاةِ أَنْفُسًا ، وَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سِيرًا مُبْجِحًا (أَيُّ لَيْسَ سَهْلًا) . وَاصْبِرُوا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رَاكِبٌ صَعْدَتُهُ : فَصَمْدًا صَمْدًا ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . .

ابن مضاء القرطبي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ز - وفي ص ٣٧ يذكر الأستاذ أن ابن مضاء يلغى القياس متأثراً بزعته الظاهرية ؛ ولا يكاد الباحث يصدق أن نحوياً يلغى القياس . واللغة تعتمد على القياس في كثير من مظاهرها ، ولو أغلق باب القياس لماتت اللغة ، ودخل على الناس من ذلك حرج وضيق . فالقياس جار في اللغة العربية ، في لسان العرب ، وفي لسان من هذا حظوم من المستعربين .

ولا نرى في كلام ابن مضاء تصريحاً بهذا الإلغاء الذي ينحله إياه الأستاذ شوقي الناصر لعلم ابن مضاء ؛ وإنما ينبغي القرطبي على النحاة أنهم قد يخطئون في العلل ، وقد يقيسون الشيء على الشيء ، دون حاجة إلى القياس ؛ إذ يكون المقيس قد علم أمره ، واستقر حكمه ، وقد يكون الشيئان في درجة واحدة ، في استحقاق الحكم اللغوي ، وقد لا يكون في المقيس العلة التي استحق بها المقيس عليه الحكم . وعمود حديثه الكلام على العلل الثواني والثالث . وقد استجره هذا إلى الكلام على إعراب الفعل المضارع ، وقياس البصريين إياه على إعراب الأسماء ، وهو لا يرى هذا ، بل يرى أن الإعراب أصل في المضارع ، كما هو أصل في الأسماء ؛ إذ الداعي إلى الإعراب - وهو التمييز بين المعاني المتواردة على الكلمة - موجود في الفعل ، كما هو في الاسم على السواء ؛ وليس من دهرى في هذا البحث ، أن أبحث في رأى ابن مضاء . هذا ، وإنما هي أنه في هذا المقام لا يقول بإلغاء القياس .

هو يعيب النحويين في قياسهم الفعل على الاسم في الإعراب ، ويذكر أوجهاً أخطأوا فيها ، حين عالجوا هذا القياس ، وحين نسبوه إلى العرب ، والعرب أحكم من أن يقعوا في هذا القياس الفائل الذي تصوره النحاة .

ويأتى الأستاذ فى هذا الموطن ، ويضع على ابن مضاء العنوان : « الدعوة الى إلغاء القياس » . ولا يضع أيدينا على الموضوع الذى ينبئ عن هذه الدعوة المنكرة . ويقول الأستاذ فى تعليقه على هذا الموطن : « يلاحظ ابن مضاء هنا أن النحاة لم يدرسوا القياس دراسة صحيحة كما يعرفها الفقهاء » . وإنى أوافق على هذا ، ولا أوافق على أنه يقول بإلغاء القياس . ولو أن الأستاذ جعل العنوان : « الدعوة الى تهذيب القياس » ، لكان له وجه من الحق ، وسند من الواقع . وكيف يدعو ابن مضاء الى إلغاء القياس ، وهو قد قاس فى بعض المواطن دون أن يحس فى ذلك أنه يخالف ما رَسَم فى كتابه ؟ فهو يقول فى ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا فى هذا الباب — يريد باب التنازع — إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهنا معمولات كثيرة ، على مذهبهم : كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها ، والتمييزات ؛ فهل تقاس هذه على المفعولات بها ، أولا تقاس ؟ قيل : أما المصدر فالظاهر من كلامهم أنه لا يكون فى هذا الباب : وذلك أن المصادر إنما يجاء بها لتأكيد الفعل ، والحذف مناقض للتأكيد ... وإن قصد بالمصدر تبين النوع ، كان أشبه بالمفعول به » . ويمضى ابن مضاء فى قياس سائر المعمولات على المفعول به .

والحق أن ابن مضاء يدعو إلى عدم الإسراف فى تلمس العلل ، وعصر الذهن فى استخراجها : ومن النحويين من سبقه الى وجوب الاقتصاد فى العلل : فهذا أبو حيان ، رأى النحويين يعملون كسر تاء المؤنث ، فى نحو أنت ضربت ، فلا يعجبه ذلك ، ويقول ^(١) : « وهذه التعاليل لا يحتاج إليها ؛ لأنها تعليل وضعيات والوضعيات لا تعلل » .

وقد ركب ابن مضاء متن الإسراف فى هذا ، فسوى بين حركات البنية ، وكسر العين ، فى عظم ، وبين الحركات فى الأواخر التى يحتلبها العامل .

٢ — وفى مبحث : « حاجة النحو الى تصنيف جديد » ، ترى الأستاذ

صاحب المدخل ، يلتقي عبء النحو الذي يبد الناس ، وثقله ، على العامل ، ويحمله من ذلك ما يقع تحته طليحا موقعا .

وفي الحق أن صعوبة النحو ، من صعوبة موضوعه : الإعراب والبناء ، وسيظل نحو العربية متشعب الأطراف متعدد المناحي ، مادام فيها إعراب وبناء . والبناء لا يعجب أحد أن يكون سبب العسر ، فهو في العربية يكون على الحركات والسكون ، كالإعراب . وما أخلق العامل أن يتمثل - إذ ينسب إليه ظلما العسر ، وهو منه برىء - بقول الشاعر :

لخلتني ذنب امرئ ، وتركته كذى العُر : يكوى غيره وهورائع

وترى صاحب المدخل يحتج إذ يدعى أن العامل مجلبة للعسر ، بأنه يشغل النحويين بشروطه ، ومواضع حذفه ، وتقديمه وتأخير ، وغير ذلك من أحوال العامل ، التي غنى بها النحاة . وهذه الأحوال لا تمت إلى النطق بصلة ، عند صاحب المدخل ؛ ومن رأيه ألا يهتم النحاة إلا بما يفيد نطقاً . والنحويون إذ يبحثون في شروط العامل ، ومواطن حذفه وتقديمه وتأخير ، يرون أنهم يبحثون فيما يفيد نطقاً ، ويحاولون جهدهم أن يصوروا ما جرى عليه العرب ، حتى يكون المؤتمى بهم جاريا على سنتهم ، غير منحرف عن منهاجهم ؛ ولصاحب المدخل أن يتقدم في علل العمل مثلا ، واختلافهم فيها .

وفي الحق أن هذا فضل فلسفة ونظر ، يكون مثله في سائر العلوم المدونة ، لإشباعا لهمة النفوس الطليعة .

والواقع أن علل العمل وتاريخها ، لا يزال البحث فيها ناقصا : وقد يهتدى إلى الحق فيها بعد إحسان درس اللغات السامية القديمة .

ويرى صاحب المدخل أن إلغاء العامل ينشأ عنه ترتيب النحو على غير الترتيب الراهن ؛ فإن هذا يتيح أن يجمع الإلف إلى إلفه ، والشئ إلى وفقه ، ويضم اللفق إلى لفقه ؛ وقد أفاض في ذكر الأمثلة للترتيب المقترح . والنحويون ما عدوا أن سلكوا هذا المسلك ، فضموا الشئ إلى إلفه ، وقد يكونون في هذا أحكم نظرا ، وأسد رأيا .

وسأعقب على بعض كلام الأستاذ صاحب المدخل :

(أ) في ص ٤٩ : يذكر أن ابن مضاء دعا إلى تيسير النحو ، وإلغاء العامل ، فلم يستجب له نخاعة المغرب ، ولا نخاعة المشرق : وقد علمت السبب في هذا الانصراف عن رأى ابن مضاء ، وأنه لا يقوم على أساس صحيح ، ولو كان في مذهبه قوة وصلاح ، لصالح للبقاء : ومثله في ذلك ، مثل مذهب الظاهرية في الفروع : فهو مذهب ليس له أتباع وأنصار ، ولم يرزق من النضج والسداد ما ينافس المذاهب الأخرى . وقد كان الأستاذ صاحب المدخل حرياً أن يسه ما وسع النخاعة من قبله ، أو أن يستريب في رأى ابن مضاء ، فلا يقدم على تحييده واعتاقه ، قبل تمحيصه وتبين الحق فيه .

(ب) وفي ص ٥١ ، وما بعدهما : ينعي على النخاعة تقسيمهم العوامل ، إلى عوامل قوية ، وعوامل ضعيفة ، ووضعهم للعمل شروطاً وحدوداً . والنحويون إذ يشترطون للعمل شروطاً ، إنما يستنبطون ذلك من الكلام العربي ، على حسب ما بلغهم عن العرب ، أو شافوهم : وقد كان منهم من خالط العرب في محاوراتهم وأحاديثهم . كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ، والكسائي ، فلم يضعوا ما وضعوا من ذات أنفسهم ، ولا اتباعاً لهوى أو خيال .

(ج) هـ ، فـ ، و ، لا ، الحجازيتان ، هل يرى أن يرتفع المبتدأ بعدهما ، وينتصب الخبر دون شرط : فيقال : ما مسيئاً من أعتب ، وما محمد إلا رسولا ؟ وهل يرى إذا قيل هذا أن هذا القول موافق لغة الحجاز ؟ إن النحويين لم يفعلوا بشروطهم إلا أن يكونوا أمناء في تصوير الصورة التي نطق بها الحجازيون ، وما كانوا في شروطهم مسرفين أو راغبين في التعقيد .

(د) وكذلك القول في نواصب المضارع : يرى الأستاذ إهمال شروطها ، ووضع شروطها يحقق ما جرى عليه العرب ، والإخلال بها إخلال بنظمهم ؛ ولو درسنا من النواصب (إذن) وجرها على مذهب صاحب المدخل ، فوضعنا أنها تنصب مطلقاً ، لكان الدارس لهذا ينصب المضارع ، في نحو (زيد ينبج إذن) ، و (هو إذن ينبج) والنصب في هذا لا يوافق لغة العرب .

(هـ) ويقول في شأن حروف الجر : إن النحاة يشترطون فيها أن تتكرر حين تعمل في اسمين متعاطفين ، وأن تتصل بمعمولها . ويعاهد نفسه أن يحذف هذا من النحو الجديد .

والحكم الأول الذى نسبته إلى حروف الجر أرسله حيث قيده النحاة ، وكأنه جرى على طريقته في الإرسال والإهمال ، وما هكذا يساعد تورد الإبل . ذلك أن النحاة إنما يضعون هذا الحكم عند العطف على الضمير المخفوض ، بحرف أو اسم : كما في قوله تعالى : « فقال لها وللأرض : فأما في غير ذلك نحو : مررت بمحمد وعلى ، فلا يقول نحوى بوجوب التكرار : ومن ذلك قوله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » . على أن المسألة الأولى ليست بمجما عليها : فن النحويين من لا يوجب التكرار ، ويخرج على ذلك قراءة حمزة : « واتقوا الله الذى تسألون به والأرحام » ، بجر الأرحام - ، وما جاء دون تكرار قول الشاعر :

فاليوم قد بت تهجونا وتشتبنا فاذهب فما بك والأيام من عجب
وقد عرض لهذا ابن مالك في قوله : *تأنيدي*
وعود خافض لدى عطف على ضمير خفوض لازما قد جعلنا
وليس عندي لازما ؛ إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

فأما الحكم الثانى الذى نسبته إلى حروف الجر - وهو أن تتصل بمعمولها - فتراه يهمله أيضا ولا يقول به ، فيجوز على هذا أن تقول : لقيت في محمدا الطريق ، تريد لقيت محمدا في الطريق . وقد يوافقنى القارىء على أن هذا لا يطابق النطق العربى ، بل لا أخطئ إذ قلت : إنه لا يوافق اللسان العامى الذى هو على إرث من اللسان العربى .

(و) وترى صاحب المدخل في القول في ترتيب النحو ، على أثر إلغاء نظرية العامل ، يرى أن يقرن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، مع الفعل المضارع المنصوب ؛ إذ لا فرق بين التقييلين ؛ فالمضارع مفتوح فيهما . فإما أن يجعل الفتح فيهما من قبيل الإعراب ، أو من قبيل البناء . فأما التفريق بينهما ، فهو من آثار العامل ؛ وإذ بطل المؤثر بطل الأثر ، كما يقول المتكلمون . ولكن المنصف يرى

أن النحويين تحملوا على الفرق بينهما لوجود فوارق حرية بالاعتبار . فالفعل المضارع المنصوب يتغير حاله إذا دخل عليه جازم ، أو إذا خلا من الناصب والجازم . وليس الأمر كذلك في المضارع المتصل بنون التوكيد : فإن آخره لا يتغير . فمن ثم جعل أحدهما مبنيًا ، والآخر معربًا : وأيضا فإن المنصوب يتبع بالنصب ، تقول : يعجبني أن تسر أباك وتواصل أخاك ؛ فأما الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، فقد يكون محله جزما ، فيتبع بالجزم ؛ تقول : إما تجتهدن في دروسك وتتفهمها تنجح ، تجزم وتفهمها . فترى من هذا أن النحاة غير عابئين فيما صنعوا . وهكذا يقال فيما رأى من قرن الفعل المضارع المتصل بنون الإناث ، مع الفعل المضارع المجزوم . ولا أراي في حاجة إلى بيان هذا وتوضيحه .

(ز) وفي النحو الجديد يرى أن يجعل المرفوع بعد كان فاعلا ، والمنصوب حالا . كما يرى الكوفيون : وهذا رأى غير ناضج ؛ فإن العهد بالحال أن يكون نكرة : تقول : جاء محمد ضاحكا ، حين تريد الحال ، ولا تقول : جاء محمد الضاحك ؛ وكان ذلك ، لأن الوصف في هذه الحالة يراد به الحدوث والتجدد ، وهو في هذه الحالة في موقع الفعل ، فلا يلائمه التعريف . والمنصوب في باب كان ، كثيراً ما يكون معرفة .

(ح) وتراه يجعل المرفوع بعد ما ، ودلا ، الحجازيتين مبتدأ ، والمنصوب خبراً : وقد يكون هذا جالبا للعسر في دراسة النحو ؛ فإن هذا يلزم الطالب أن يراعى تقسيم خبر المبتدأ إلى خبر مرفوع ، وإلى خبر منصوب ، والخبر المنصوب يكون في كذا وكذا : وخير من هذا ، وأعون على الضبط ، صنع النحاة . وتراه في هذا الموطن يورد المثال : (ضربني العبد مسيئاً) ، ويجعل مسيئاً خبراً عن ضربني ، ويعرف عن رأى النحاة في جعل مسيئاً حالا والخبر محذوفا ؛ ذلك أن من رآه العزوف عن الحذف والتقدير . ولكن المعنى لا يستقيم على تخريجه هذا ؛ فإن هذا يقضى بالحكم على ضربه العبد بأنه مسيء ، والمتكلم لا يريد هذا ، وإنما يريد أن الضرب وقع على العبد حال إساءة العبد ، وأنه حل بمن يستحقه .

وتراه بعد هذا يعرض للنبيت :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

ولا يرضى تخريج النحاة ؛ إذ يجعلون ذا نفر خبراً لمكان المحذوفة ؛ ويرى

أن ذا نفر خبر المبتدأ الذى هو أنت ، ولا ضير عنده أن ينتصب خبر المبتدأ على الشذوذ . ومن المقرر ألا يلجأ فى التخرج إلى الشذوذ ما كان عنه مندوحة ؛ وحذف كان ثبت فى مواطن كثيرة ، لا يسع صاحب المدخل إنكارها : وإلا فإذا يرى فى قولهم : إن خيراً فخير ، والتمس ولو خاتماً من حديد ؟

وتراه بعد هذا فى ص ٥٥ : يذكر أن خبر المبتدأ قد يكون مجروراً بحرف الجر الزائد ، فلا بدع أن يكون منصوباً ، والنحويون يقدرّون الخبر المجرور مرفوع المحل ، حتى ليراعى الرفع فى التابع ؛ تقول : ما زيد بقائم ولا قاعد ، بالرفع : وذلك فى لغة التميميين .

(ط) وفى ص ٥٥ ، وما بعدها ، يعرض للنصب والمرفوع بعد (إن) وأخواتها ، فيجعل المنصوب مبتدأ ، والمرفوع خبراً لمبتدأ : وهذا أيضاً فيه تفسير : لما علمت أن الطالب سيؤخذ بتفصيلات عديدة ، وتقسيات هو فى غنى عنها ، بما وضع النحاة من تمييز كل نوع بحالة لا تلتبس بالآخرى .

(ي) وهو يرى ألا يفرد باب — لظن وأخواتها — وأن يجعل ذلك فى باب تعدى المفعول به ؛ وإذا علم القارئ أن المفعول — ظن وأخواتها — أحكاماً خاصة ، عمل عليها العرب ، وراعوها فى كلامهم : كإلغاء والتعاقب ، لا يسعه إلا أن يفرد لها باباً ، كما صنع النحاة . وهذا لئلا يشتبه أمر هذه الأفعال ، بنحو : أعطى وكسا .

وبما يسترعى النظر فى هذا المقام ، أن صاحب المدخل يأتى عن فكرة التعدى وال لزوم فى الأفعال : لأنها تدل على العمل ، وترتبط به : وهو يوصى بأحد هذه الاصطلاحات : واقعة وغير واقعة . مجاوزة وغير مجاوزة ، مؤثرة وغير مؤثرة . ومحل العجب رضاه بالاصطلاح الأخير : وفيه من التصریح بتأثير الفعل وعمل العامل ما ليس فى المتعدى وال لازم .

(ك) وفى ص ٥٧ : يذكر أن النحويين فى باب الفاعل ، قلما وقفوا وأشاروا إلى صيغه الخاصة حين يخرج من الرفع إلى الجر : ومن المعروف أنه يحجر بمن الزائدة بعد النفي والاستفهام ، فى مثل : هل جاء من أحد ؟ وأيضاً فإنه يحجر

في عبارتين دائماً ؛ وهما : كفى بالله شهيداً ، وصيغة التعجب ، في مثل : « أسمع بهم وأبصر ، والواقف على كتب النحو يرى أنهم عرضوا في باب الفاعل لخروجه من الرفع الى الجر ؛ يرى هذا في التوضيح ومشرحه ، ويراها في الأشموني ، إذ يعقد أحد تنبيهاته لهذا الحكم .

(ل) وفي ص ٥٨ : يذكر من الشذوذ في باب الفاعل بحيثه جملة ، ويقول : ويجب أن تصور ذلك فيه : فنذكر أنه يأتي جملة باطراد بعد : أن وأن ولو وما ، ، فتراها يجعل مجيء الفاعل جملة شاذاً ، ثم يجعل منه ما هو مطرد ؛ والمعروف أن الشاذ لا يكون مطرداً . فهل تراه لا يعبأ بالاصطلاح الذي لا بد منه في العلوم ؟ ! ولعله يريد أن الأصل في الفاعل أن يكون مفرداً ، وبحيثه جملة خلاف الأصل ، وهذا هو المعنى بكونه شاذاً . وأياً ما كان الأمر ، فهو يعتمد الخروج على ما قرره النحاة ، وهو جعل الفاعل بعد الحروف المذكورة مفرداً ، هو المصدر المنسبك كما يقولون ؛ وذلك أن قولك : يسر المرء ما ذهب الليالي ، يساوى تماماً : يسر المرء ذهاب الليالي ؛ ولا يحسن الناطق بالكلام الأول ، أنه نطق بجملتين . فقد يكون نظر النحويين أسد .

(م) وفي ص ٥٩ : يذكر من أنواع التمييز ، التمييز بعد الضمير ، نحو : لله دره فارسا ، والضمير في هذا الأسلوب ليس بشرط ؛ فلو قلت : لله در محمد فارسا ، لم يتغير الأسلوب .

وأراني بعد هذا قد أبديت ما عن لي حين قراءة المدخل ، لكتاب ابن مضاء ، ولست أدعي العصمة من الخطأ ، وإنما هو بحث أعرضه ، وإني لمتن على صاحب المدخل غير كافر له . والله يهدينا جميعاً سواء السبيل ؟

حسن التوسل

أتى عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق ، فأمر بقطع يده . فأنشأ يقول :
 يدى يا أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقى مكانا يشينها
 ولا خير في الدنيا وكانت خسيصة إذا ما شمالي فارقتها يمينها
 فأبى أمير المؤمنين إلا قطعها . فقالت أمه يا أمير المؤمنين : إنه واحدى وكاسي . قال : بثس الكاسب كان لك ، وهذا حد من حدود الله . قالت : يا أمير المؤمنين اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها . فعفا عنه .

مسئولية الاطباء

لحضرة الاستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

جراحة التجميل :

قلنا إنه يجب أن يكون تدخل الطبيب بقصد شفاء المريض وإلا فهو مسئول .
ولكن ظهرت فى العهد الأخير رغبة قوية - خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى -
نحو معالجة بعض العيوب الخلقية بإجراء عمليات جراحية لإزالتها ، لما يترتب
على بقائها من جعل المشوهين محل سخريه الناس ، فضلا عما يشور فى نفوسهم
من الغم والسكد ، لما يحسون به من نقص عن سواهم من البشر : فسا حكم هذه
الجراحة التى سميت بجراحة التجميل ؟

الرأى الراجع فى فرنسا ، هو أن العمليات التى لا ينتظر أن يتخاف عن
إجرائها خطر ، تعد من الأعمال الطبية المشروعة : أما إذا كانت خطرة فلا يجوز
القيام بها .

ويرى الفقهاء الألمان أن جراحة التجميل عمل تقره الدولة ، ولا يستوجب
المسئولية .

ويرى علماء بلجيكا إباحة جراحة التجميل ، ما لم تمنع من أداء واجب اجتماعى .
ومن الواضح أن جراحة التجميل مباحة لدى جمهور فقهاء الشريعة ما دام
أساس الإعفاء من المسئولية هو رضا الشخص المعالج : وظاهر أنه فى هذه
الحالات يكون تدخل الطبيب بناء على طلب ورضا المعالج : ومن ثم فلا محل
للمسئولية .

وقد سبق أن بينا أننا لا نقر جعل الرضا أساسا للإعفاء من المسئولية :
ونرى فيما يختص بجراحة التجميل أن المسألة تتوقف على العيب المطلوب علاجه

ومدى تضرر صاحبه منه ، وهل يلحقه منه عاروشين أم لا . والمسألة تقديرية نرى أن يترك الفصل فيها للمحاكم وفقا لظروف كل حالة ، فما يعد عيبا في المرأة قد لا يعد عيبا في الرجل ، كما أن بعض الأشخاص كثيرا ما يقدمون على إجراء هذه العمليات لا ليزيلوا عيبا بل ليزدادوا جمالا . ويجب أن يدخل في الاعتبار أيضا مدى خطورة الجراحة التي سيجريها الطبيب ؛ فإن كان الأمل في نتيجتها أوفى الشفاء منها ضعيفا ، فتمد وجب أن تمتنع . مهما كانت صفة العيب المطلوب إزالته .

وليس القول بجواز إزالة العيب الخلقي مخالفا لأحكام الشريعة ، بل على العكس ؛ فإنها إن لم تكن توجهه فهي لا تحرمه ؛ فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن بعض العيوب الخلقية تمتنع من انعقاد الإمامة ، وهذا يوحى بأن من الواجب إزالة هذه العيوب متى كان ذلك ممكنا . قال هؤلاء الفقهاء : إنه يمنع من انعقاد الإمامة ، ما شان وقبح ولم يؤثر في عمل ولا نهضة كجدع الأنف وسمل إحدى العينين ... فالسلامة منه تكون شرطا معتبرا في عقدتها ليسلم ولاية الملة من شين يعاب ونقص يزرى فتقل به الهيبة . وفي قلتها نهور عن الطاعة ، وما أدى إلى هذا فهو نقص في حقوق الإمامة ^(١) .

ثانيا : يجب أن يكون العلاج طبقا لقواعد مهنة الطب . فمن المفروض على الطبيب أن يراعى أصول المهنة عند معالجة المريض ، فإذا خالفها وجب أن يسأل عن ذلك ، وهو لا يسأل إلا عن الخطأ الجسمي ، أما الخطأ في الآراء أو الوسائل الفنية المختلف عليها بين الأطباء فلا يسأل عنه مهما كانت نتيجته . والعلة في إعفائه من المسؤولية في هذه الحالات هي الرغبة في إعطاء الطبيب شيئا من الحرية حتى يمكن لعلم الطب أن يتقدم .

وإذا تجاوز الطبيب حدود عمله متعمدا فإن مسؤوليته تكون مسؤولية عمدية : أما إذا كان قد أخطأ فإنه يسأل مسؤولية غير عمدية .

وهذا الشرط محتم لدى فقهاء الشريعة الغراء . ونرى قبل أن نستخلص القاعدة

العامه في هذا الموضوع عندهم أن نذكر شيئاً مما جاء في كتب الفقه عن هذا الموضوع ، ليتضح للقارىء الأساس الذى أقنأ عليه رأينا .

جاء في كتاب معين الحـكام : إذا حـجم الحـجام أو بزغ البيطار أو ختن الختان فمات ، لم يضمن . هذا إذا لم يجاوز موضع الفعل ؛ فإن جاوز موضع الفعل فقطع الحشفة : ذكر فى النوازل أنه إن مات فعليه نصف بدل النفس ، فإن برى فكمال بدل النفس ، لأنه مات بجرحين وهو مأذون فى أحدهما . وفى ديات شرح الطحاوى : فعليه القصاص ، ولو قطع بعض الحشفة لا قصاص عليه . ولم يذكر ماذا يجب عليه . وفى الفتاوى الصغرى فى كتاب الديات : يجب حكومة العدل .

الكامل : إذا صب الدواء فى عين رجل فذهب ضوءها لا يضمن كالختان إلا إذا غلط . حجام قال لآخر : فى عينك لحم إن لم تزله عميت عينك ، فقال : إني أزيله عنك ، فقطع الحجام لحماً من عينه وهو ليس بخاذق فى هذه الصفة فعميت عينه ، يلزمه نصف الدية .

سئل نجم الأئمة الحلبي عن صبية سقطت من السطح فانفتح رأسها فقال كثير من الجراحين : إن شققم رأسها تموت ، وقال واحد منهم إن لم تشقوه اليوم أنا أشقه وأبرئها ، فشقه ثم مات بعد يوم أو يومين : هل يضمن ؟ فتأمل ملياً ثم قال : لا ، إذا كان الشق بإذن وكان معتاداً ولم يكن فاحشاً خارج الرسم . فقيل له : إنما أذنوا على أنه علاج مثلاً . فقال : ذلك لا يوقف عليه ، فاعتبر نفس الإذن . قيل له : فلو قال هذا الجراح : إن مات فأنا ضامن : هل يضمن ؟ قال : لا (١) .

وجاء فى كتاب تبين الحقائق : لا يضمن - حجام أو بزاع أو قصار لم يعد الموضوع المعتاد ، لأنه التزمه بالعقد فصار واجبا عليه ، والفعل الواجب لا يجمع الضمان ، كما إذا حد القاضى أو عزروا مات المضروب بذلك ، إلا إذا كان يمكنه التحرز عنه كدق الثوب ونحوه ، لأن قوة الثوب ورقته يعرف به ما يحتمله من الدق بالاجتهاد ، فأمكن تقييده بالسليم منه ، بخلاف الفصد ونحوه فإنه ينبنى على قوة الطبع وضعفه ، ولا يعرف ذلك بنفسه ولا ما يحتمله من الجرح ، فلا يمكن تقييده

بالسليم ، وهو غير السارى ، فسقط اعتباره ، إلا إذا جاوز المعتاد فيضمن الزائد كله إذا لم يهلك ، وإن هلك يضمن نصف دية النفس ^(١) .

وفي متن الأمير وحاشية حجازى العدوى عليه : أنه إذا جهل الطبيب ضمن . وظاهره أن الضمان عليه في ماله . وهذا ظاهر سماع أشهب . ويضمن أيضا إذا قصر كأن أراد قلع سن فقلع غيرها خطأ أو تجاوز - بغير اختياره - الحد المعلوم في الطب عند أهل المعرفة ، كأن زلت أو ترامت يد خاتن ، أو سقى عليلًا دواء غير مناسب للداء معتقدا أنه يناسبه وقد أخطأ في اعتقاده ^(٢) .

وإذا خلع الطبيب سنا غير المتفق عليها ، فإن كان ذلك عمدا فعليه القصاص ، وإن كان خطأ فالعقل ^(٣) .

ونص في مذهب الإمام أحمد على أنه لا ضمان على حجام ولا ختان ولا متطبب إذا عرف منهم حذق الصنعة ولم تكن أيديهم . فإذا لم يكونوا ذوى حذق في صناعتهم ولا لهم بها بصارة ومعرفة لا يحل لهم مباشرة القطع . فإذا قطع أحدهم مع هذا كان فعله محرما فيضمن سرايته كالقطع ابتداء . وكذا يضمن الطبيب إذا كان حاذقا ولكن وقع منه إهمال لا يجوز أن يقع منه كأن يجاوز قطع الختان إلى الحشفة أو إلى بعضها ، أو قطع في غير محل القطع ، أو يقطع بآلة كآلة يكثر ألمها ، أو في وقت لا يصلح القطع فيه ، وأشباه هذا .

والذى يمكن استخلاصه من الأحكام المقدمة هو أن الطبيب الحاذق لا يضمن إذا قام بواجبه على الوجه الكامل بأن اتبع قواعد الطب والجراحة في معالجة مريضه مهما كانت نتيجة العلاج ، فيستوى في الحكم أن يشفى من مرضه أو أن يلقى ربه .

وكذلك لا يسأل الطبيب إذا أخطأ في عمله خطأ يسيرا يمكن أن يقع فيه أى طبيب ، أما إذا كان الخطأ مما لا يجوز أن يقع فيه طبيب بأن كان ناتجا عن جهل أو خطأ فاحش ، فإنه يسأل عن فعله ، ومسئوليته تكون مسئولية غير عمدية .

(١) تبين الحقائق ج ٥ ص ١٢٧ ، وعلل المؤلف كون الواجب في حال الهلاك نصف الدية بأن النفس تلفت بمأذون فيه وغير مأذون فيه ، فيضمن بحسابه وهو النصف ، حتى إن الختان لو قطع الحشفة وبرأ المقطوع تجب عليه دية كاملة لأن الزائد هو المشقة وهو عضو .

(٢) متن الأمير وحاشية حجازى العدوى ج ٢ ص ٤٠٦ (٣) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

عود على بدء

السيد القاياتي

لحضرة الأستاذ السيد عناني

شكر اللهُ لمجلة الأزهر صنعها في إفساح المجال لدراسة شاعر خل ، من شعراء الأزهر ، هو : السيد حسن القاياتي : وجزى ناسج بردها ، الأستاذ الجليل عبد الجواد رمضان ، خير الجزاء ، أن فتح لعشاق الدراسات الأدبية الرفيعة ، هذا الحصن الشامخ ، من حصون الأدب ، التي تهيب الدنو منها كثير من الدارسين . وما أريد أن أعقب على الأستاذ ، فيما أورد للسيد من ترجمة ، ولا فيما قدم من عرض لآثاره : فإنه لحقيق بأن يكون ابن بجدة ذلك : وإنما أحب أن أجلي رأي المتواضع ، فيما انتهى إليه من حكم ، قد لا يتفق كثيراً . مع ما قدم من مقدمات ، وما عقد من مقارنة بينه وبين شاعر دار العلوم : الأستاذ محمود غنيم ، وهو واحد من الشعراء الذين يسمون هم أنفسهم بالسيد عن مستواهم الشعري ، وما قرر في دراسته من أن « شاعرنا القاياتي مضى بجزالة الأسلوب الشعري ونغمته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال . وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ولا من الأحياء . . . » فإن هذا التقرير بدتياً ، وهو حق في جملته ، يقتضى ألا تعقد مقارنة بينه وبين أحد ، وأن يكون المجلّي دائماً حتى فيما توارد عليه وغيره من معان ، وأن يكون المفن المتأنق عند ما يقيم أنموذجا من نماذج الفن الرفيع ، يقف المشاهد عنده مأخوذاً مشدوهاً ، لا ذلك البناء الربيعي الذي يشيد من شعره هيكل من الصخر : « فإن » من مضى بجزالة الأسلوب ونغمته بين الشعراء ، أضن بخرائد الشعر أن تستحيل بين يديه إلى صخور . . ومن ثم فإنني آمل ألا يؤاخذني الأستاذ في أن أخالفه فيما انتهى إليه من حكم ، يبدو أنه تأثر فيه بشذشنة الجماهير وحكمها الفطير : فلا ريب في أنه مؤمن معي

أن الجماهير لا تستطيع التغلغل في دقائق الفنون الرفيعة عامة ، في أي عصر من العصور ، ولا في أي أمة من الأمم - على تفاوت بينها في ذلك - . ولا ريب في أن رسالة الفن ، في أي ناحية من نواحيه ، هي إرشاد هذه الجماهير ، وتهذيب شعورها ، والسمو بمستواها الفني ، حتى تستطيع أن ترتفع إلى تصور المثل العليا في الحياة ؛ ومن ثم فإنها لن تفهم ذلك بدياً ولا تقبل عليه إلا أن تسنح لها الفرص أو يوجد من يهديها إليها . وعلى ذلك لابد أن يكون ما يقدمه الفنان فوق مستواها مع أن النزول إليها في الوقت نفسه أيسر سبيلاً وأقل كلفة وعناء ؛ بيد أن هذا ليس غرض الفنان الحق الذي يؤمن برسائله ، ويعرف أن مهمته هي إرشاد هذه الجماهير إلى المثل العليا في الحياة ؛ وإلا ما شهدت الدنيا روائع الفن التي قدمها مبدعوها في مختلف العصور قرباناً خالصاً للبشرية ، غير مباليين برضاء الجماهير ولا غضبها ؛ هذه الجماهير التي أبدع القاياتي وصفها - من حيث تقديرها للشعر - إذ يقول :

طائر الصيت لديهم كل من أرسل الشعر سقيماً أو لحن
وقد سجل لنا التاريخ أن كثيراً من الفنانين ضحوا بعيشهم وسمعتهم ، بل بحياتهم كلها ، إيماناً منهم برسالتهم وجعل أجيالهم ، إلى أن أتت أجيال باعدت بينها وبينهم السون ، فأرسلت آيات تقديرها وعرفانها إلى أرواحهم ، وعطرت بتقديرها لهم تاريخهم ؛ وتلك قضية أعتقد أن الأستاذ عبد الجواد موافق عليها .
وعلى ضوء هذا نعرض لدراسة بعض آثار السيد ، من حيث الغرض الفني للشعر ؛ وليكن مثالنا قصيدته في رثاء المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ، مقارنة بما أورده الأستاذ من قصيدة الشاعر محمود غنيم في نفس المقال ، والشاعران - عندي - من مدرسة واحدة ، ومذهب شعري واحد ، إذ أن ثقافتها واحدة ، وليس كما يذهب الأستاذ عبد الجواد من أنهما يمثلان مذهبين مختلفين ، ولا تفاوت بينهما إلا بمقدار تفاوتهما في الموهبة الشعرية ، ورسوخ القدم في الفن .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصول لو نمتي النجم بعضها لحرك عطفه من التيه إن بدا
ورباه بيت يخدم الناس شيخه وإن كان فيه الطفل يولد سيدا

على البر والتقوى تأسس ركنه ومن لبنات العلم والدين شيدا
ويذكره القاياتي فيقول :

الشمس بيتك ، والعلا تنهل عارفة ، وجاها
عرفوا أباك فسدتهم والشمس ما عرفوا أباهما
للدين بيت ثقافة للجامعات ، وما بناها
في مدى طه يعتلى ناديك ، أم في علم طه . ا

ويعرض غنيم موقفه من الأزهرين فيقول :

فنى حرر الإسلام من رق معشر يرون الجرىء الحر ليس موحدًا
قضى واجب الأوطان والذين كاملا وأصدر في كل الأمور وأوردا
ولم يقض في ظل الصوامع عيشه قعيداً ، وليس المسلم الحق قعددا
ويعرض لهم القاياتي فيقول :

يا سيداً عصفت به شيم الجلالة ، وابتناها
فكتك بنفسك عزة كالنار يتلفها لظاها ... ا
كـرم أحـل بربه تلف الأزاهر في نداها ... ا
ضحك الغـواة لنبله فبكى الفضيلة وافـداها
أنف الهـوان بساحة البـدرُ يشرق في ذراها

ولن نمضى في إعادة ما أثبتة الأستاذ رمضان ، وإنما نكتفى بهذه الأبيات لكل من الشعارين ، في غرض واحد تواردا على بعض معانيه ، وسيرى القارىء أن غنيم مع تقديرنا له وعلى سهولة شعره وجمال تراكيبه ، متأثر أليماً تأثر بأخيلة القدامى ومعانيهم ، وأنه لم يسجل معنى جديداً ، ولا تشبهاً مبتكراً : بل صور لنا في بساطة محبة بيت عبد الرازق على ما كان عليه فعلاً ، ولم يزد على حكاية الحال المشاهدة بالبصر ١١

أما القاياني فإنه يعرض لنا في كل بيت معنىً جديداً مبتدعاً ، في لفظ أنيق رشيق ، فيه جمادة الاستبصار وقوة الأسر : وتلك إحدى مميزات القاياني ، التي جعلت له طابعاً خاصاً تفرد به ، كما تميز بدقة التشبيهات وابتداعها ، فلا يقع منها إلا على كل فريد حسن في موضعه ، واشتغال كل بيت من أبياته على فكرة مستقلة تقرأ بها النفس ، أو صورة ذهنية يسعد بها العقل والفكر . وتأمل أبيات السيد المذكورة آنفاً ، تدلُّك بنفسها على ما فيها من جمال فني ، وابتداع في التشبيه البياني ، وبخاصة البيتين : الثاني والثالث .

وستجد أن الطاقة الفنية عند الأستاذ غنيم محدودة بحكاية الحال ونقل الصورة المشاهدة ، على رغم رنين الألفاظ وجرسها ؛ ولا شك أن المعاني المستخرجة من غير شاهد الحال أصعب منالاً من المصورة للواقع المشاهد ؛ وكما يقول ابن الأنثير : « وللمهجوم على عذارى المغاني المحمية بحجب البواتر ، أيسرُ من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر » .

ولقد بنى الأستاذ عبد الجواد حكمه على الشاعرين على اعتبار أن الأول يمثل الرقة والعدوبة التي تستهوى الجماهير ، وأن الثاني يمثل الجزالة التي لا تستهوى إلا الخاصة التي لا تكاد تذكر . وفي هذه المناسبة نحب أن نسأل الأستاذ عن الفرق بين الجزالة والرقة ؟ اللهم إن كانت الجزالة هي المتانة في اللفظ ، مع عدوخته في الفم ، وحسن وقعه على السمع ، وكانت الرقة هي اللطافة في التعبير مع بعده عن الإسفاف والصنعة ، مع سلاسته وخلوه من التعقيد ، فإنه ليس ثمة فرق يذكر بينهما سوى ما يدركه السامع الخبير بذوقه من فرق بين لفظ وآخر ، وأدائه للمعنى الذي حمله ؛ ولم يبق من فرق فعلي سوى السمو في المعنى ، وشرف الفكرة التي يتناولها الشاعر ، ودقة الصورة التي يريد أن يبرزها .

ولقد ظل الشعر العربي منذ انحلال الدولة العباسية يدور في دائرة واحدة تقريباً ، هي دائرة اللفظ ، وجعلها الشعراء حلبة تسابقهم ؛ أما المعنى ، أما التحليق في دُنَى من المعاني ، وابتداع صور جديدة يزودون بها عالم الفكر ، فهذه لم تكن لهم على بال ، حتى صَحَّ لبعض النقاد أن يهتموا الشعر العربي بأنه مشغلة الفارغين ، وهم في ذلك جند معذورين .

فإذا وافقنا الأستاذ على هذه القضية أيضاً ، وهي أنه ليس ثمة مانع من أن تجمع الرقة والجزالة في واحد ، وأن كل جزل رقيق وبالعكس - سوى ماتمليه المناسبات الخاصة من اختيار الفاظ معينة قد تبعد عن الرقة أو الجزالة قليلاً أو كثيراً - فإننا نكون قد وصلنا إلى أن السيد قد جمع بين الغيتين ، وتفرد بالحسنين بين شعراء النهضة ؛ وحسب في الاستدلال نفس الأبيات التي أوردها الأستاذ ووسمها بحق بأنها سحر من السحر ، وإن أطلق عليه الشعر . وهي التي منها :

إن في الغادين منى طفلة قام بدع الحسن منها وقعد
مُصوّرت من جوهر الشمس فما هي إلا ريق السّور جمد
أوقد الحسن على وجنتها جمر قاي . فتلذّذني واتق
يمكف الطرف عليها مُغضياً قد رأى قبلة حسن فسنبدا

ليت شعري هل رأى الشعر العربي في أزهي عصوره ، بل في كل عصوره ، شعراً يُسَمُّو هذا الشعر رقة وعذوبة وجمالاً ؟ وهل رأت البلاغة العربية أزهي من هذه الصور المتلاحقة ، في قلب محب يودع حبيبته ؟ إنه فن فنان ماهر ، بكل ما في هذا اللفظ من قوة .

ومما يشهد لشاعرنا برسوخ القدم في فنه ، وحساسيته المرهفة ، في الوقوف على الفرق الدقيق بين الجزالة والرقة ، مقصودته في حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، والتي أورد الأستاذ شيئاً منها ، ولا أمل بتكراره ؛ بل أورد شيئاً من قصيدته في ثورة دمشق في سنة ١٩٢٥ وما فعله بها الفرنسيون :

لغير الهدى أجلب العاصف وللنبل أن يغضب الآنف
إذا رسف الشعب ذاق الفناء كأن الهواء هو الراسف
قبول المظالم يغري الظلوم كما لج فنانك الصادف
إذا عطل الشعب هماته فأنبل ما يرتجى حاتف
بلاء الدخيل وكيد العشير كما اجتمع النار والعاصف

هو الغرب : لا قلبه نابض برحى ، ولا طمره ذارف
 حرى بنفكيره أن يسيل نجيعاً كما يطرق الراحف
 تباب لعديه ، لا يومه أعان ، ولا أمسه السالف
 أسى للحليفة إذ غدرها تليد ، وإذ حلفها طارف
 لقد جدد الغرب حتى العيون غزا الشرق فتانها الشاغف
 كان الدنانير غريبة فوارس جحفها زاحف

والقصيدة في نحو السبعين بيتاً كلها على هذا الفسق الفريد الطراز، قوة وجزالة،
 حتى أنت ألقاظها كما يقول ابن الأثير : كأشخاص عليها مهابة ووقار .

ولما كان شاعرنا طليعة المجددين لديباجة الشعر وأخيلته ومعانيه ، فإننا
 نجمل مميزات شعره لنتبين مدى أهدافه ومقاصده ، وحدود رسالته وأوضاعها ،
 ولنتطبع تفهم أدبه وفنه ، فنقول : إنها :

- ١ — التألق في اختيار اللفظ مع صفائه وعذوبته .
- ٢ — ابتداع صور من المعاني لم يسبق إلى أكثرها .
- ٣ — جمال التشبيهات المنزوعة من المدركات الحسية .
- ٤ — استقلال كل بيت من قصيدة بفكرة مستقلة .
- ٥ — تخيير الأوزان والقوافي التي لم يطرقها كثير من الشعراء .

وليست هذه كل مميزات شعر السيد ، وإن كان بعضها حسب شاعر من غار؛
 فإذا علمت إلى ذلك أنه ظل طوال حياته ، يرسل شعره في شتى الأغراض ،
 لا يقصد به إلا إرضاء رغباته الفنية البحت ، علمت أن له هدفا يقصده ، ورسالة
 معينة ؛ وذلك أن يحدد شباب الشعر ، ويميد إليه مجده الفنى من حيث السمو
 فى المعنى ، والإشراق فى التعبير ، وتزويده بصور جديدة من الاخيلة ، متخذاً
 من منابع اللغة الاصيلة معينه ، ومن هدى القرآن مثله . أو كما يقول هو بنفسه
 واصفاً بيانه :

بيان هاد غذته آى من المثاني فرق آيا
 يراعة صرفت جمالا كما يشق اليراع قابا

ولقد مضى شاعرنا في تحقيق أهدافه وأداء رسالته ، في هدوء هو طبيعه ،
وسكون هو سميته ، وسماحة هي ديدنه ، وانصراف عن الضجة والدعابة الزائفة ؛
وظل على ذلك عمره — مد الله فيه — مؤمناً بحق ، أنه إن لم يفهمه جيله فسيأتي
من بعدهم من ينصفه ويثأر له ؛ وهذه الخلال ، وتلك السجايا هي التي جنت عليه
وباعدت بينه وبين الجماهير ، لا شعره ولا فنه ، وإن كان إرضاءها أيسر من لا
وأقرب سبيلا . ولكن للرجل مثالية فنية عبر عنها إذ يقول :

ليس طيب الذكر حقا كاه يذكر البدر بحسن ما فتن
ومثالية أخلاقية تمثل في قوله :

عصى الجلالة لا أعزى الى الهون لولا سجود الصلاة
هذا وليس الرجل بالقليل الخبرة بوسائل العصر ، والوصول الى ما يريد ؛
فهو في ذلك ذو الناب والمخرب ، ولكنه يعتصم بخلقه وسجاياه ، وقد يسر إليه
في أسباب الرزق والنعمة . واسمعه يصف عصره هذا الوصف الدقيق إذ يقول
في قصيدة ضافية :

يا عصر ما فيك من عتوَاد يا عصر ما فيك من خفايا
ما للثنايا ترف بشرا على الجوى يصدع الحنايا ؟
علام تزهى بعصر علم تدم في حمده التحايا ؟
لدى البغايا لنا خلال وما لنا رقة البغايا !!
نطالع الحفل بالمخازي يا قبح لا تنظر المرايا
والآن وقد وصلنا الى هذا المدى من البيان ، لا تغالى إذا قلنا إن السيد بحق
رائد جيله وطليلة مجديده ، وشاعر البيان الاصيل ، وواصف الجمال الرائع ؛
وإن من الجناية على الذوق الفنى لأبناء هذا الجيل أن يقال إنه شاعر الخاصة
وحدهم . وإليك طاقات من أزاهيره هي خير ختام لهذا الحديث :

قال يصف شجرة صناعية زينت بعقود من ثريات الكهرباء في قصيدة
طويلة منها :

لقد أورق الغصن حتى زها وشف به النور حتى التهب
لمن كفن يحمل المبدعات كما يحمل العود حبلو الطرب

سَرِيٌّ من الحسن في مُتَرَفٍ من الغُصن يزهى بنور عجب
عن السُّلك أو مَضُّ نَوَّارِهِ فهل مرَّ قلبي حتى وَجِبَ
سَمَاءَ تَأَلَّقَ بالنِّيرَاتِ فنجمٌ أضاء ونجمٌ غَرِبَ
ضِيَاءً ، فَكَفَّ ، كَغَمْرِ الجُفُونِ ووجهه تَهَلَّلَ ثم اُكْتُابَ
إلى أن يقول :

سُمِّتَ المعاد وأن الحياة كأنفاس أبنائها مُتَسَلِّبَ
مُتَيْنًا . وكم نَعْبُدُ الزائفات بزئيف الجمال وزئيف الأدب

ومن غزل القاياتي في صدر قصيدة وطنية ، وهو في شرعة الأدب بدع من
البدع لا شعر من الشعر ، قوله :

هتفت بأكية يوم الظعن ليت هذا البين لم يملكُ حسن
غضبة الله على يوم النوى إنه دلَّ على القلب الشجن
آه من وقفة بين لم تذر دمعةً في مقلة الظبي الأغن
مقلة ملأى بسحر لم تثبت ليلةً في الدهر ملأى من وسن
وفؤادٌ أَسَكَّتْهُ لوعةٌ ودَّ من طول خفوقٍ لو سكن
أقبأتُ مُطلقة من قرطها زهرةً أولى بها ذاك الفن
تخلط الدلَّ بمضى حزن حرَّ قلبي ، من دلال في حزن

ويقول مطالباً زعماء مصر بالإصلاح :

عوّدونا من قياد نهضةً إنما الامة هدى واعتياد
علّمونا ، أصلحونا ، حطّموا كل قيد يستبيننا أو صفاد
الغنى والمجسّد ، رهن بالغنى جدّدوه ، كالتغنى بامتداد
كذب الفاوون ، ليست حرةً أمةً تعنا بعلم واقتصاد

ويقول واصفا طفلاً يرضع ثدي أمه :

فَتَّانَةُ الدَّلِّ من بعض الأماليد تدنى مُنلى ثديها من ثغر مولود
 طفلٌ يميل على نهدي فيرضعه أخذ الحمام بأطراف العناقيد !!
 وهكذا جل شعر السيد ، بل كل شعره ، متعة للسمع والقلب ، ونزهة
 للخاطر ؛ فحكته وحي حسّ مرهف ، وغزله يستبي أشد الغيد دلاً ، وشكاته
 تلين أشد القلوب عتواً ؛ ولولا ضيق النطاق لأوردت للقراء كثيراً وكثيراً . وم
 يصدق عليه قول القائل :

أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

تحايل

قال أبو عبيدة : أخذ سراقه بن مرداس أسيراً يوم جبانة السبيع تقدم
 في الأسرى إلى المختار صاحب الدعوة العلوية . فأنشده سراقه :

امنن على اليوم يا خير من تعيد وخير من لبي وصلى وسجد
 نخلي سبيله . فلم يف سراقه بما وعد من الانضمام إليه ، ولحق بجيش إسحاق
 ابن الأشعث ، فوقع أسيراً ثانية وأتى به المختار أسيراً ، فقال له : ألم أعف عنك ؟
 لاقتلك ! قال سراقه : لن تفعل . قال المختار : ولم ؟ قال : لأن أبي أخبرني أنك تفتح
 الشام حتى تهدم دمشق حجراً حجراً وأنا معك . نخلي سبيله . فهرب ثانية ووقع
 أسيراً . فقال له المختار : لاقتلك هذه المرة !

فقال : ليس هؤلاء الذين أسروني ، فإننا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب
 بيض وتحتهم خيل بلق تطير بين السماء والأرض .

فقال المختار : خسلوا سبيله ليخبر الناس بذلك ، ثم هرب سراقه ودعا لقتال
 المختار وقال :

ألا من مبلغ المختار عني بأن البلق دم مضمرات
 أرى عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
 كفرت بوحكم وجعلت نذرا على قتالكم حتى الممات

المبادئ الاشتراكية في الاسلام

المحاضرة الأستاذ سعيد زايد

الاشتراكية في الإسلام

مما سبق ندرك أن الاشتراكية في صميمها ترى أولاً وبالذات إلى المساواة الفعلية في كل شيء، وخاصة في الواجب الاقتصادي، فهي في جوهرها مساواة وعمل؛ وندرك أيضاً أنها لم تأخذ الشكل العملي، أو كما يقال: لم تبلور أفكارها على شكل مبادئ عامة إلا على يدى كارل ماركس.

بقى علينا أن نعرف إذا كانت أسسها والمبادئ التي رغبت في تحقيقها قد تحققت فعلاً في الإسلام قبل ذلك بحوالى اثني عشر قرناً أم لا.

ذخر القرآن الكريم بالآيات التي تحض على المساواة في الحقوق والواجبات: «يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» إلى غير ذلك من الآيات. وسيرة الرسول الكريم كلها تنطق بالعدل وتحت على المساواة، وتحارب التفاخر والغرور، فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: «يأياها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلا بالتقوى: ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا ذليليبلغ الشاهد منكم الغائب». وكذلك سيرة الخلفاء الراشدين مملوءة بما يصح أن يفخر به المسلم من تحقيق للعدل والمساواة. ويظهر هذا المقام إذا نحن حاولنا أن نقف عند سيرة كل منهم فنبين أثره من آثاره.

ولقد منح الإسلام حرية للمسلمين لا تنص عليها أعظم دساتير العالم. خليفة المسلمين اختياره موكل إليهم، والحرية الفكرية كانت مكفولة في الإسلام،

وما زال التراث الذى خلفه المتكلمون ، وخاصة المعتزلة وفلاسفة الاسلام ، محفوظا الى اليوم ؛ وحرية العقيدة كانت محققة أيضاً ؛ قال تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ؛ والحرية المدنية أيضاً . ويكفى أن نذكر أن الإسلام كان يتلمس أوهى الاسباب للقضاء على الرق حتى يحقق لجميع الافراد الرشد المدنى ، واتبع فى إلغائه طريقة حكيمة سارت تدريجيا حتى قضت عليه .

وأية مساواة أعظم من وقوف المسلمين بعضهم بجانب البعض ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، فى الصلاة ، وقيامهم بحركات واحدة من ركوع وسجود ؟ هنا تخضع نفس الكبير ، وترتفع نفس الصغير ؛ وكذلك وقوفهم عرابا إلا من ثياب الإحرام فى الحج ، لا يكاد المرء ، أو بتعبير أصح : تعدم التفرقة بينهم ، أليس فى ذلك مثال المساواة ؟

بقى أن نعرف كيف حقق الإسلام المساواة المادية ؟ قال تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . ولقد كانت الغنيمة أيام الرسول هى ما يستولى عليه جيوش المسلمين من منقول ، فكان صلى الله عليه وسلم يختص بخمسها لتوزيعها على الأشخاص المنصوص عليهم فى الآية ، والأربعة الاخماس الأخرى كانت توزع على رجال الجيش بنسبة مجهود كل شخص فى الحرب ؛ وطبق الرسول هذه القاعدة فى الأرض أيضاً عند ما فتحت الجيوش خيبر . وعندما جاء عمر رضى الله عنه فرق فى الغنيمة بين المنقول وغير المنقول ، فكان يوزع الغنيمة على الجيش كما كان يوزعها الرسول تطبيقاً للآية ؛ أما بالنسبة للأرض فكان يعتبرها فيئاً أو وقفاً على الناس ، تطبيقاً لآية الفى التى يقول فيها سبحانه وتعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُوله بين الأغنياء منكم » . ولقد عمل بهذه الآية فى جميع الأراضى التى فتحها المسلمون فى عهد عمر ، ومنها مصر التى ظلت طيلة حكم العرب وهى مملوكة لبيت المال الذى كانت تدفع منه أرزاق الجنود وما تحتاجه المصالح العامة فى البلد الذى حصل منه المال ؛ ويصرف الباقي على الناس على أساس ما يؤدونه للدولة من عمل ومجهود ، أو على أساس ما قدمه السابقون من خير للإسلام .

ويحسن هنا أن نذكر نصاً للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم في كتابه الخراج ، إذ ذكر أنه لما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفتوح وجاءت الأموال قال : « إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى في هذا المال رأياً ولى فيه رأى آخر ؛ لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ ففرض للمهاجرين والأنصار من شهد بدراً خمسة آلاف خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبيا أن يقبلا ، فقال لهما : إنما فرضت لهن للهجرة . فقالتا : لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله ، فعرف ذلك عمر ، وفرض لهما اثني عشر ألفاً ، وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف . فقال : يا أبت ، لم زدته على ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي ، وما كان له ما لم يكن لي . فقال : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك . وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فرعر ابن أبي سلمة فقال : زيدوه ألفاً . فقال له محمد بن عبد الله بن جحش : ما كان لأبيه ما لم يكن لأبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا . فقال : إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفاً ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً . وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فرببه النضر بن أنس فقال عمر : افرضوا له ألفين . فقال طلحة : جثتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين ؟ فقال : إن أبا هذا القيني يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فإن الله حي لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاء في كذا وكذا . . . فعمل بهذا في خلافته . .

وهناك نص آخر يشهد على عدل عمر ، إذ يعتبر الأرض التي استولى عليها جيش المسلمين فيئاً . قال أبو يوسف « فلما جاء فتح العراق . . . وشاورهم في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام ، فكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر رضي الله تعالى عنه : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه : فما الرأي ما الأرض والعلوج إلا بما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فإذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » .

ولقد رأى عثمان وعلي وطاحه وابن عمر رأي عمر . . . لكن الفاروق العادل لم يكتف بهذا ، بل أرسل في طلب عشرة من الألفجار . . . من الأوس وخسة من الخزرج ، وقال لهم « . . . خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هوأى ، معكم من الله كتاب يطق بالحق ، فإني لئن كنت فطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ، وعرض عليهم الأمر » فقالوا جميعاً الرأي رأيك فنعم ما رأيت ؛ إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم ، فقال عمر « قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ » .

هذا ما كان يتبعه الإسلام في تقسيم الغنائم . ولقد كان من نتيجة ذلك أن تجمعت بالطبع عند الأفراد ثروة فردية أو ملكية فردية حصلوا عليها من التجارة ومن أخذ أنصبتهم من بيت المال ، ولكن الإسلام فرض أشياء حالت دون تكديس الأموال ودون ظهور نظام الطبقات ، فقانون التوريث الإسلامي ساعد على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن ، ووسع دائرة الانتفاع بها ، فكل أبناء المتوفى لهم حق الميراث ، بعكس القانون الإنجليزي مثلاً الذي يقتضي بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكبر ، وبذلك تظل الثروة مكدسة في يد فرد واحد من أفراد العائلة

وقول الرسول « لا رعية لوارث » الذي صار بعد ذلك مبدأ فقهيًا له حكمة وأية حكمة ، فهو يمنع انتقال الثروة كلها الى أحد الأبناء . أليس في هذا اشتراكية معتدلة تجعل العدل والمساواة نصب أعينها ؟

والزكاة التي هي إحدى أركان الإسلام الخمسة ، قد فرضت على كل ما يمتلك الشخص من أموال وتجارة وزراعة وما الى ذلك من أشياء . وأكبر مثل للمساواة فيها فرضها على الشخص الذي يمتلك قوت يوم وليلة بمناسبة عيد الفطر ، لتعم البهجة وينتشر السرور : قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

ولقد حبيب الإسلام في الصدقة : قال تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » وندد بالبخل وحب الشح خشية الفقر : قال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ومجدد الإيثار ، قال تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولقد كفل بيت مال المسلمين العيش للمسنين والعاطلين من المرضى ، وللمواليد أيضا : وكلنا يعرف قصة الأم التي فطمت ولدها قبل الأوان ، فلما مر عمر بن الخطاب ليلا وسمعه يبكي واستقصى السبب فعرف أنها فطمته لينال راتبه من بيت المال ، فأصبح الصباح على صوت منادى عمر ينادى في المسلمين : أن لا تفتطموا أولادكم قبل الأوان فإنما تنزع بهم من يوم ولادتهم .

كلمة تقديرية :

هذه بعض نظرات سريعة في الإسلام كشفت لنا عن نوع من الاشتراكية يمكن تسميته بالاشتراكية المعتدلة ، اشتراكية وجدت في روح الشريعة السمحة ، وفي سيرة النبي والخلفاء الراشدين . وإن الباحثة المدقق ليلس آثارها في كل شيء ؛ فلقد ظهرت روحها في بعض آثار الفلاسفة والأدباء والشعراء ، ولئن أراد أستاذنا الأكبر ألا ينعت الإسلام إلا بأنه إسلام وكفى ، فإني أرى أن في قول فضيلته

لفتا لنظر هؤلاء الذين يملثون الدنيا صياحا بأن في الاشتراكية عدلا ومساواة، الى أن الإسلام قد حقق مساواة وعدلا يفوق عدلهم ومساواتهم، فإن كان الإسلام لم يبلغ الملكية الفردية، إلا أنه جعل فيها حقوقا للفقير والبائس والمحروم.

الإسلام إذن هو الإسلام كما قال أستاذنا الأكبر، فإن وجد فيه الباحثون عدلا وحرية ومساواة تطابق روح الاشتراكية فواجب عليهم أن لا يسألوا عما حقق الإسلام من الاشتراكية، بل عما حققت الاشتراكية من روح الإسلام. وإذن فيمكننا بدون تعسف أن نغير موضوع مقالنا - إذا أردنا أن نعطي الفضل لذويه، وأن نقلد السابق الأول في حلبة الآراء قلادة النصر - الى : المبادئ الإسلامية في النظام الاشتراكي .

وبعد، فهذا بحث سريع على هامش رسالتنا الجامعية - كما قدمنا - ويوم أن يسمح لنا بنشر كل ما رأينا، سيرى حضرات القراء أن الإسلام قد فاق الاشتراكية وأى نظام آخر في تحقيق المبادئ الإنسانية النبيلة.

بديهة موفقة

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له : إني مدحتك فاستمع . قال : على رسلك ، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال : قل ، فإن أحسنت حكمتك ، وإن أسأت قتلناك . فأنشأ يقول :

أمنت بدادود وجود يمينه	من الحدث الخشي والبؤس والفقير
فأصبحت لا أخشى بدادود نبوة	من الحدثان إذ شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف	وحكم سليمان وعدل أبي بكر
فتى تفرق الأموال من جود كفه	كما يفرق الشيطان من لينة القدر

فقال له داود : قد حكمتك فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى . قال الأعرابي : بل على قدرى . فأعطاه خمسين ألف درهم . فقال له بعض الجلساء : هلا احتكمت على قدر الأمير ؟ قال : لم يك في ماله ما ينفي بقدره ! . قال له داود : أنت في هذه أشعر منك في شعرك . وأمر له بمثل ما أعطاه .

المنطق اليوناني والمنطق الرمزي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي
المدرس بكلية اللغة العربية

نشرت مجلة الأزهر في عدد شعبان سنة ١٣٦٧ هـ من المجلد التاسع عشر ،
مقالاً تحت عنوان : (ثورة في المنطق) وهو للأستاذ الفاضل الدكتور أحمد فؤاد
الاهواني المدرس بجامعة فؤاد الأول ، وقد أشار فيه الى ثورة جديدة توجه
الآن نحو المنطق اليوناني ، باسم المنطق الرمزي ، أو الجبري ، أو العلي . وكمن
ثورة قامت على المنطق اليوناني منذ نقل الى اللغة العربية ، فلما نقل الى اللغات
الأوربية الحديثة ، قامت عليه مثل هذه الثورات ، ولكنه صمد لها كلها ، ولم
تحدث هذه الثورات في صميمه تغييراً يذكر .

لقد ثار على هذا المنطق بعض علماء المسلمين باسم الدين ، لأنه كان مختلطاً
ببعض مسائل الفلسفة اليونانية ، فحرموا الاشتغال به من هذه الناحية ، لأنه
ضار بالدين في ذاته ؛ ولكن الله قيض له علماء آخرين من المسلمين قاموا بإنصافه ،
فجردوه من هذه المسائل الفلسفية التي لا تدخل في صميمه ، حتى صار علماً لا يؤخذ
على أنه وسيلة خاصة بتلك الفلسفة ، بل يؤخذ على أنه علم قائم بذاته ، يخضع لحكمه
غيره من العلوم ، ولا يخضع لحكم تلك الفلسفة ولا لغيرها ، وقد بلغ تعصب
الإمام الغزالي له أنه كان يقول : من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه .

ثم قامت عليه ثورة أخرى من بعض علماء العربية ، لأنه يعتمد على أصول
اللغة اليونانية ، وهي تخالف العربية في كثير من أصولها ، فلا يمكن أن يقوم
هذا المنطق في العربية كما يقوم في اليونانية . وقد غفل هؤلاء العلماء عن العلاقة
التي تقوم بين المنطق واللغة اليونانية ، فهو لا يتصل بأسلوبها في المحادثة أو الخطابة
أو الشعر ، وإنما يتصل بالأسلوب العلمي الذي ترتب فيه التعاريف ترتيباً خاصاً
يوصل الى حقائقها ، وترتب فيه المقدمات ترتيباً خاصاً يوصل الى نتائجها ؛ وهذا
الأسلوب لا يفرق في اللغة اليونانية واللغة العربية ، ولا في غيرهما من اللغات
البشرية ، لأنه أسلوب يتأثر بأسلوب العلم في التعريف والتدليل والمناظرة

والحجاج ، والعلم لا يقف عند لغة من اللغات ، بل يجرى حكمه على اللغات جميعا ؛
فشأن علم المنطق في هذا كشأن العلوم الإلهية والطبيعية والرياضية ، تتفق مسائلها
في جميع اللغات ، ولا تختلف في لغة منها عن غيرها .

ثم قامت عليه ثورة ثالثة ، في أوائل النهضة الحاضرة ، يراد منها تقديم المنطق
الاستقرائي ، على المنطق القياسي ، لأن المنطق الاستقرائي يعتمد على التجربة ،
وقد قامت النهضة الحاضرة على أساس الاعتماد عليها في العلم ، فليكن المنطق
الاستقرائي الذي يعتمد عليها أحق بالتقديم على المنطق القياسي ؛ وبعضهم يغالى
في هذا ، ويجعله هو الأحق باسم علم المنطق ، والمنطق اليوناني يعرف القسمين ،
ومنطق القياس فيه هو الذي يعتمد على استنباط الجزئيات من الكلّيات ، ومنطق
الاستقراء فيه هو الذي يعتمد على استنباط الكلّيات من الجزئيات ، ولكنه كان
يهم بالمنطق الأول أكثر من الثاني ، لأن الكلّيات التي يعتمد عليها في الاستنباط
مرجعها إلى العقل ، أما الجزئيات التي يعتمد الاستقراء عليها في الاستنباط فمرجعها
إلى الحس ، والعقل هو الذي يحكم على الحس ، دون العكس ، فيكون ما يرجع
إليه أولى بالتقديم ، مما يرجع إلى الحس ؛ على أن كلا منهما له مجاله في الحكم ،
ولو كان مجالها واحدا ، لكان هناك معنى لتقديم أحدهما على الآخر ،
ولمّا اهتم المنطق اليوناني بمنطق القياس لكثرة أحكامه ، وتنوع مسائله .

وهذه ثورة رابعة على المنطق اليوناني ، وهي ثورة أصحاب المنطق الرمزي ،
يدّعون فيها أن المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها
في النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع ، فالنوع كإنسان ، يشمل : سقراط وزيدا
وعمر وغيرهم ، ثم تقول : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان : لأن
الحيوان يشمل أنواعا ، منها الإنسان والطيور ، إلى آخر أنواعه .

ثم يدّعون أن هذه النظرة غير دقيقة ، وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس بمجموع
سقراط وزيد ، وفلان وفلان ، إذ الواقع أنه لا يتركب من زيد وعمرو ،
وليس هذا الشخص وذاك الشخص ، أجزاء من النوع ؛ وإذا كانت الأمور
كذلك ، فإنه يجب البحث عن أمر آخر بدلا من النوع والجنس .

ولا شك أنهم يخطئون في نسبة ذلك إلى المنطق القديم ؛ لأن دلالة النوع فيه

ليست من دلالة الكل على أجزائه ، كما يدعون ، وإنما هي من دلالة الكل على جزئياته ، والفرق كبير بين الدالتين ؛ وإذا كانت هذه الدعوى غير صحيحة ، فإن ما بنوه عليها في منطقهم الرمزي يكون غير صحيح أيضا ، وهو إلى هذا من الغموض بحيث لا تظهر له ثمة كشمرة الجنس والنوع .

وهكذا يدعون في ثورتهم على المنطق اليوناني ، أنه يعتمد على الألفاظ ، أما المنطق الرمزي فإنه يعتمد على الرموز ، وهو في هذا أدق وأحكم ، لأن الرموز منها الثابت كالعدد - ١ - فإن له معنى لا يتغير مع الاستعمال في العمليات الحسابية ، ومنها ما يتغير مثل - س ، ص - فإنه متغير لا يحمل معنى مستقرا في ذاته ؛ فإذا قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفي ، أو الإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى ، سواء أ كان صادقا أم كاذبا ؛ أما إذا قلنا : هل - س - عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم ، لأن - س - عدد متغير ، لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده ، فهذا شأن الرموز ، أما الألفاظ فإنه لا يقال فيها إنها ثابتة أو متغيرة ؛ وبهذا يكون اتجاه المنطق الرمزي إلى أن يجعل التعبير موضوعيا ، وهذا يدنيه من العلم الصحيح ، لا نقول : الذهب أصفر ، ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، ولكننا إذا امتحنا ما نجد الذهب ، ولونه الأصفر ، جزمين من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ؛ وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها ، إلا إذا نظرنا في جملة الظروف المحيطة بها ، فالذهب أصفر في ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون . وعلى هذا يكون أصحاب المنطق الرمزي على حق في نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير ، فقد رأينا أن الصفرة ليست حدا ثابتا بل متغيرا ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ولا شك أن المنطق القديم ليس في شيء من هذه الدعوى أيضا ، لأنه ينظر في المفاهيم لا في الألفاظ ، ونظره في الألفاظ بالعرض لا بالذات ، وهو مع هذا يجعل من الصفات ما هو ثابت ، وما هو متغير ، ويسمى الثابت باللازم ، ويسمى المتغير بالمفارق ؛ كما يجعل من الصفات ما هو ذاتي ، لا يمكن إلا أن يكون ثابتا . وما أجدر ما ذكره في صفرة الذهب بأن يعد من السفسطة ، وما أجدر المنطق الذي يعتمد على مثل هذا بأن يكون سفسطة باطلة ؟

نواحي الإعجاز

في أخلاق الرسول

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد شاهين

من علماء الأزهر

باتت السيرة النبوية موضع عناية كثير من قادة الفكر الحر في الشرق والغرب جميعاً؛ فقد أعنوا هنالك وهنا يبحثوا ودراسوها على الطريقة العلمية السائدة بين باحثي العصر في تحقيق الأحداث الإنسانية الكبرى، وتحليل الشخصيات التاريخية البارزة. وهذه العناية بالسيرة كانت بعض نتائج البعث الثقافي والنهضات القومية في الشرق الإسلامي الحديث. أما في الغرب فكانت من مظاهر تحرير الفكر الأوروبي من سلطان الكنيسة التي شلّت تقدمه أجيالاً، حتى حطم أغلاله وأدرك استقلاله، فانبعث ينشد الحقائق المجردة من سائر آفاق المعرفة الإنسانية، ومنها أفق الحضارة الإسلامية الزاهرة.

وقد وفق لفيف من مفكرى الغرب الأحرار إلى فهم جوانب عدة من مدنية القرآن، وحقائق الدين الخفيف، وقاريخ خاتم النبيين، وصدعوا في أنهم بما أدركوه ثمة من الحقائق والقيم؛ فعُدل دكارليل، موقف كثير من مفكرى الانجليز من نبي الإسلام العظيم. وطلع د دار منغام، على الفرنسيين بما أدهشهم من مزايا الإسلام وعظمة رسوله محمد. كما انبرى د تلمستوى، يدافع بجرارة وإخلاص عن النبي العربي في العالم السلافي المتعصب. وكذلك أتاحت النهضة الفكرية وحرية الرأي للأوروبيين الوقوف على كثير من حقائق الإسلام وحقائق رسوله الأعظم، من الظلام الكثيف والمفتريات الخسيسة الشائعة التي حاولت بها الكنيسة تلبس هذا الدين على الأوروبيين، حتى لا يقضى على سلطانها في الغرب كما قضى عليه في المشرق. ولكن إلى أى حد فهم هؤلاء المفكرون المنصفون نبي الإسلام؟

لقد حال بينهم وبين حقيقة الرسول العربي أن المدنية الإسلامية كانت مدنية عربية خالصة ، فلا يتاح لباحث ما أن يحسن فهمها على وجهها مالم يحسن فهم لغة القرآن وروحها وأسرار بلاغتها . كذلك زاد في صعوبة فهمها لهذا الرسول تشويه ما نتمل من تاريخه الى اللغات الأوروبية ، بفعل نفر من صنائع الكنيسة من المبشرين أو أنصار الاستعمار من المستشرقين . زد على ذلك تسلط المنهج العلمي الطبيعي على أولئك الباحثين في تمحيص التاريخ وتعليل حوادثه ، فهم دائماً مقيدون بالظاهر من قوانين المادة وأحكامها في الشرح والتعليل ، حتى لقد حاولوا تفسير الظواهر الميتافيزيقية في حياة النبيين تفسيراً مادياً ، ولو أدى ذلك الى الاعتساف ، بل الى التخبیط أحياناً ، كما سترى بعدُ حين نعود الى مناقشة هؤلاء الباحثين في مدى فهمهم لنبي الإسلام ، وإنما ألعنا هنا الى منهجهم القاصر ، لتأثيره الظاهر على من عاجل السيرة من كتابنا المحدثين .

هذا وإن من سمات الضعف في دراسات هؤلاء المفكرين المحدثين ، أن الجانب الخلقى من السيرة لم يظفر منهم بما يستحقه من العناية والبحث ، رغم أنه من أبرز العناصر في شخصية الرسول ، وأغناها بالمعاني والقيم السامية ، وأحفلها بمظاهر العظمة والبطولة ودلائل النبوة ونواحي الإعجاز . ولقد قصصنا عليك في بحثنا السالف صورة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم في شبابه وقبل مبعثه : فإذا تأملناها الآن في ضوء العلم وتحت مجهر (السيكولوجيا) الحديث ، سطعت لعينيك معجزة روحية باهرة ، تخلفت بها بعض نواميس الوجود الروحية ، كما تخلفت بعض نواميس المادية ، بما ظهر على يديه عليه السلام من المعجزات الحسية الجبارة . وآية ذلك أنك لا ترى في تلک الاخلاق ما عده العلم الحديث العوامل الأساسية في تشكيل الاخلاق والسلوك ، وذلك هو تأثير البيئة وروح الجماعة ، والوراثة ، والغريزة .

اشتهر الرسول في هذه السن الباكرة بالتواضع والرفق والإخلاص الى الصمت والعزلة . وما كان لهاته الخلال في بيئته شأن ما : ذلك بأنه نبت في بيئة صحراوية قاسية بخلت على سكانها بكثير من حاجات العيش الضرورية ، ونأت بهم عن المدنية ، ولم تعمّر فيها الشرائع السماوية على وجهها طويلاً ، فأدى ذلك وغيره الى تفكيك الروابط الإنسانية بينهم ، فتفاقت بينهم سنة تنازع البقاء ، حتى أصبحوا يعيشون

في إقليمهم عيشة الضواري والسباع : صراع دائم، وتناحر مستمر؛ ومن ثم كان مظهر النجابة في الشبيبة يومئذ بالشجاعة والمهارة في أساليب السكر والفخر، أو بالشجاعة والنبوغ في فنون الشعر والنثر. بهذا كانوا يتقنون غارات الالسة في المجامع والمحافل، وبذلك يتقنون غارات الالسة في معترك الجحافل؛ وكلما ظهر في قبيلة شاعر مجيد أو فارس صنيدي، دقت البشائر ومشى إليها أحلافها بالتهاني. فكيف نأى محمد بن عبد الله عن هذا الصراع، وترفع عن أقرانه من الشباب، وآثر التمسك والزهد؟ لقد كان تحصيل الغنائم والمنع بقوة السلاح وسيلة مألوفة من وسائل الكسب، بل من دواعي الفخر والإعجاب، فما له لا يساير زمانه ويحاكي أقرانه؟ إن هنا عواطف وغرائز بطل عملها في سلوك هذا الفتى القرشي اليتيم. أين غريزة التقليد ومحاكاة النظير والمباراة؟ وأين عواطف العصبية وحب الظهور والاثرة؟ لم يكن محمد ضعيفا ولا رعيديا، ولا بذى عى أو حصر، وكان من أشرف العرب بيتا وأعلام صوتا، فما الذى صرفه عن مجاراة أمثاله من الشبيبة؟ وما الذى عقد لسانه عن قرص الشعر أو التغريد به في المفاخرة والمكاثرة؟ إن محمدا عليه السلام لم يتلق قبل بعثته من عوامل التربية الخاصة ما يعصمه من تحكم البيئة، أو يجعل تأثيرها عكسيا، أو يرقى بغرائزه وعواطفه على أسلوب ما من أساليب الابدال والإعلاء والتسامي.

وما هنا، هاهنا تجلى المعجزة في ضوء العلم المجرد. كان محمد في صباه يمت عبادته قومه وعاداتهم، على حين كان من أبرز الصفات الوارثية في بني قومه التعصب الأعمى للتقاليد وتقديس العرف، وكان الرجل منهم يتحامل على نفسه ويخالف ضميره وعقله في سبيل النزول على مقتضيات العرف والتقاليد الموروثة، حتى وأدوا أفلاذ كبدهم عملا بالعرف السائد.

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإني ترشد غزية أرشد
إنا لنرى هاته المناعة الخلقية في سلوك محمد هي بعض إرهاب نبوته، ونواحي الإعجاز في أخلاقه العظيمة. يؤيدنا في ذلك العلم المجرد ومنطق البحث المحايد؛ ولكن ذلك مالا يراه بعض الباحثين المعاصرين في السيرة النبوية: لقد عرض لهاته الظاهرة، ظاهرة المناعة والتنفك، في أخلاق الرسول علان من أعلامنا المحدثين، هما أستاذنا الجليل هيكل باشا والأستاذ العقاد، فحاولا تفسير هذه الظاهرة على

المنهج السالف الذكر ، فقال الاول في كتابه (حياة محمد) ما نصه : « أما أنه نأى عنها (يعنى خلاعة الشباب) فذلك ما يشهد به التاريخ ، لكنه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها ، فقد كان الخلقاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون أسباب الرزق إلا الضنك والإملاق ، يجدون الوسيلة إليها ، بل كان بعضهم أشهر من أجماد مكة وأشرف قریش إمعاناً فيها وإدماً لها ؛ إنما كانت نفس محمد صلى الله عليه وسلم مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكان حرمانه من التعليم الذى يتعلمه بعض أنداده من أبناء الأشراف جعله أشد للمعرفة تشوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التى تجلت من بعد آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها ، كانت فى توتها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو إليه أهل مكة ، إلى نور الحياة المتجلي فى مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها ، ولاكتناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به . كل ذلك ظهر منذ الصبا الاول مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس حتى دعاه أهل مكة جميعاً الأمين . » وقال الثانى فى كتابه القيم عبقرية محمد : « تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه ، فولد فى بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ، ونشأ يتيماً من طفولته ، فانطوى على نفسه ، وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا ، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير ، الخ .

إذن فالدكتور هيكل يرى تلك الظاهرة أثر حب المعرفة والكمال ، والشعور بالنقص والحرمان عند إنسان حرمه فقره من العلم والتعليم . ويراها العقاد أثر بيئة صالحة ووراثة خيرة وتأمل مستمر ؛ ولكن إذا علمنا أن الأمية كانت خصيصة غالبية على العرب فى جاهليتهم ، وأنه لم تكن لهم علوم تذكر ، اللهم إلا معلومات بدائية بسيطة كانوا يتداولونها ويتوارثها الخلف عن السلف ؛ فلم تكن الأمية إذاً مما يعاب على الأميين أو يحط من قدرهم فى تلك البيئة حتى يستشعروا نقصاً ، أو تولد لهم عقدا نفسية تدفعهم إلى محاولة التعويض بأسلوب شاذ ، كالتماس المعرفة بالانقطاع فى شعف الجبال للتأمل والتفكير . فهذا لم يكن طريقاً للمعرفة عند القرشيين فى ذلك العهد ، اللهم إلا نفر من مشيختهم من أصابوا علماً أو نحلة عند أهل الكتاب ..

وإذا علمنا أن نزعة الخير في النفس وحبا للكمال لا يصرف سلوكها عن الأهداف التي تواضعت عليها البيئة واعتبرتها خيرا ، إذ القيم دائما نسبية ، والبيئة هي أول الاعتبار في تقريرها وتحديد ما ؛ وإذا علمنا كذلك أن خصائص الوراثة عند الإنسان خاضعة دائما لبيئته ، فهي التي تبرزها وتنميتها وتكيفها بطابعها الخاص ، وهذا القانون متخلف في أخلاق محمد عليه السلام ، إذ أن نسكه حينذاك لم يكن من طراز النسك في بيئته ، بدليل مقتته للأوثان ، على حين لم يكن قومه يحدون غضاضة في تقديسها ، وقد نصبوها حول البيت لتكون شفعاءهم عند الله تقر بهم إليه زلفى . . . كذلك نعلم أن اليتيم لا يحمل على الانزواء أو الانطواء من كان على شاكلة محمد من الأبطال العظام - إذا علمنا ذلك كله صعب علينا قبول هذا التفسير من أستاذينا الجليلين : هيكل والعقاد ؛ إذن فلا مندوحة للباحث المحايد الذي ينصف الحقيقة المجردة من التسليم بهذا التفسير الحق الوارد في حديث القاضي عياض المتقدم في صدر بحثنا السالف ، وذلك هو العصمة ، وإلا فعمدنا بكل مصلح تنكر لأساليب الحياة في بيئته أن يكون في ثورته متشعبا بأفكار ومبادئ أخرى ، ولكن محمد بن عبد الله لم يتح له علم ولا معرفة على يد معلم أو مرشد . وههنا سر المعجزة . كثيرا ما ظهر العباقرة المثاليون والأبطال المصلحون في البيئات المنحطة ، كما تظهر حجارة الماس وسبائك الذهب في باطن الأرض بين الثرى والجنادل ، ولكن كما لم نسمع بأن ماسة كريئة أو سيكة ذهب خالص عثر عليها في منجمها وهي مصفاة مصقولة قد صيغت حلية بدعنة دقيقة الصنع وذلك من غير أن تمتد إليها يد من قبل ، كذلك لم نسمع ولا سمع التاريخ أن عبقريا قد ظهرت عبقريته وخصائص نبوغه دون أن تتناوله عوامل التربية المختلفة ، إلا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا هذا الفتي الأمي الذي نشأ فقيرا يتما بين سخافات الجاهلية وخرافات البدو الحمجية ، ثم كان على هذا السمو النفسى والخلق العظيم . إن الذين ذهبوا إلى أن الفطرة في أصلها خير محض لا ينكرون أن إهمالها وتعرضها للتأثرات الفاسدة يفسدها ، كالأرض الطيبة إذا أهملت سبخت وأنبئت الطفليات . وههنا تتجلى المعجزة ، معجزة العصمة التي رمز إليها شق الصدر ، وأظهرها حديث القاضي ، وشهد بها العالم ، ودل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أدبني ربى فأحسن تأديبي » .

المسئولية الادبية

لفضيلة الأستاذ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يخالف الإنسان القانون فيسرق ، أو يغصب بالقوة ، أو يقتل ، أو يشهد الزور ، فماذا يحصل ؟

يحصل أن تسأله الدولة عن هذه المخالفات التي ارتكبها ضد المواطنين الذين ترعاهم ، ثم يتقدم للقضاء فيحكم القاضي عليه بالعقوبة التي فرضها القانون ، وقد رها على من يعصى أمره ويضر غيره من الناس . وهذه المسئولية تسمى المسئولية القانونية ، أو المسئولية الاجتماعية ؛ لأن المخالفات فيها ارتكبت ضد القوانين الوضعية التي جاءت لتنظيم مصالح الأفراد في علاقاتهم المتبادلة بعضهم مع بعض في الجمعية الإنسانية .

ويحصل أن ترى ناساً من عباد الله يثنون تحت نير الفقر ، والجهل ، والمرض . ويراهم عبد من عباد الله يكثر الذهب والفضة ، يسره أن يراها كل يوم تزداد وتزداد ، ولا يسره بل يخيفه أن ينزل عن شيء منها لتخفيف ويلات هذه الإنسانية المغدبة ؛ فهل يسأله القانون عن هذا الشح كما يسأل السارق ، والغاصب ، والقاتل ، وشاهد الزور ، ثم يفرض عليه عقوبة لعدم إحسانه على عباد الله ، وامتناعه عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ؟ !

ويحصل أن تساعد إنساناً في مسألة ما ، فتضيع من وقتك ، وراحتك ومالك أحياناً حتى تفضيها له ، ثم لا يلبث أن يخذل هذا الجليل ، ويكفر بهذه النعمة ، ويقلب لك ظهر المجن ؛ فهل يسأله القانون ، كما يسأل ذلك السارق ، والغاصب ، والقاتل ، وشاهد الزور ، ثم يفرض عليه عقوبة لجحده النعمة ، وكفره بهذا الجليل ؟ لا .

شأن أن ذلك الربيل ، وهذا الجاحد للجميل ، وإن لم يسألا أمام المحاكم الوطنية لمخالفتهما القوانين الوضعية ، فإنهما مسئولان أمام قانون آخر ليس

كذلك القانون ، وفي محكمة أخرى ليست كذلك المحكمة . . . ذلك هو قانون الأخلاق ، وتلك هي محكمة الضمير الإنساني ، وهذه المسؤولية تسمى المسؤولية الأدبية ، أو المسؤولية الأخلاقية .

والإلزام في المسؤولية القانونية أو المسؤولية الاجتماعية آت من سلطة خارجة عن ذات الشخص ؛ تلك هي سلطة القانون الذي يحرم ، والدولة التي تعاقب ؛ وفي المسؤولية الأدبية أو المسؤولية الأخلاقية ترى الإلزام آتيا من سلطة داخلية ذاتية غير خارجة عن الشخص ؛ تلك هي سلطة الضمير الإنساني الذي يأمر وينهى ، ويعاقب ويثيب .

وعلى هذا فالإنسان مسئول أدبيا أو أخلاقيا عن أعماله جميعها من ألفها إلى يائها أمام محكمة الضمير ، وما هو إلا محكمة استئناف كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، عامة أو خاصة كانت هذه الأعمال . وليس الأمر كذلك في دائرة المسؤولية القانونية أو المسؤولية الاجتماعية . فبينما ترى القانون الأخلاقي في دائرة المسؤولية الأدبية يقضى على الإنسان بفعل كل ما فيه منفعة الأمة ومنفعته الشخصية ؛ بينما ترى هذا ، ترى القانون الوضعي في دائرة المسؤولية القانونية لا يشمل إلا المسائل العمومية التي تنظم أعمال الإنسان من جهة علاقته بغيره من الناس ؛ أما سير الأفراد الشخصي فلا يتدخل فيه القانون الوضعي ؛ فهو لا يتدخل إلا حيث يؤذى الناس بعضهم بعضا ، فركز العليمين علم القانون وعلم الأخلاق واحد ، وهو تنظيم أعمال الإنسان للوصول به إلى الدرجة الممكنة في السعادة التي هي الخلو من القلق ، والألم ، والاضطراب . لكن محيط أحدهما أكبر من محيط الآخر .

والسبب في هذا الاختلاف بين العليمين أمران كما يقول « بنتام » ، في كتابه أصول الشرائع :

الأول : أن علم القوانين لا يمكن أن يؤثر مباشرة على سير الأفراد الشخصي إلا بالعقوبة ، والعقوبة ضرر لا يجوز الحكم به إلا إذا نتج من إيقاعه خير أكبر منه . وإذا نظرنا إلى كثير من الأحوال الشخصية رأينا أن العقوبة عليها تنتج ضرراً أكبر من ضرر الفعل الذي حكم من أجله على مرتكبه ؛ لأن تنفيذ القوانين

في مثل هذه الحال يستلزم استعمال وسائل من شأنها إزعاج الخواطر ، وإيقاع الرعب في الأفكار ، وهو ضرر أشد مما جاء القانون لاجتنابه .

الأمر الثاني . أن علم القوانين محفوف دائماً بالخوف من إصابة برىء . حال كون المراد معاقبة الجاني ، وهو في الأحوال الشخصية يصل إلى درجة الخطر ؛ ومنشأ هذا الخطر ما يوجد من الصعوبة في تعريف الجرائم النفسية ، وتوضيحها والوقوف على كنهها . مثلاً : القسوة ، وكفران النعمة ، والخيانة ، والمورابة ، وما شابهها من القبائح ، مردولة عند الناس ، لكن لا تقع تحت سلطة القانون لتعذر الوقوف عليها تماماً ، كالسرقة ، والقتل ، وشهادة الزور ، وغير ذلك .

ومن هنا جاءت ضرورة تمسك الناس بالدين ، واتباع الأخلاق الفاضلة ، لإبقاء لحسن الروابط بين الناس ، وحفظاً للنظام العام في هذه الحياة . فالدين قد سد الفراغ الذي لم يستطع القانون أن يسده ، والدين قد أمر بأشياء لم يستطع القانون أن يأمر بها . فهو ضروري للاجتماع السياسي ، وهو ضروري للاجتماع الذي له علاقات يومية وغير يومية . ضروري لكل ذلك ضرورة الماء للحياة ، ما دام الإنسان أشد قابلية للاجتماع من النحل ومن سائر الحيوانات التي تعيش قطعاناً .

لذلك أمر الدين الإسلامي بالإحسان ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقال : « وأحسن كما أحسن الله إليك » وقال سبحانه : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وما دامت المسئولية الادبية نتيجة لطبيعتنا الإنسانية ، والطبيعة الإنسانية قد طغت عليها المادية بشكل مزعج ، ولا يمكن الشك - كما يقول أرسطو طاليس في كتابه السياسة ترجمة أستاذنا الجليل مربي الجليلين احمد لطفى السيد باشا - « في أن الدولة هي بالطبع فوق العائلة ، وفوق كل فرد ، لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء ، ما دام أنه متى فسد الكل فليس بعد من جزء ، لا أرجل ولا أيدي ، إلا أن يكون على سبيل المجاز ، كما يقال : يد من حجر ، لأن اليد متى فصلت عن الجسم لا تبقى يداً على الحقيقة ؛ وإن الأشياء لتعرف على العموم بآثارها التي توقعها والتي من شأنها أن توقعها ، فتقطع استعدادها الأولى لا يمكن أن يقال هي أنفسها » .

ما دام هذا وذاك ، وأن الطبع يدفع الناس بفرائضهم الى الاجتماع السياسى ، فن مصلحة هذا الاجتماع إذن التوسع فى القانون بفرض عقوبة على من يخالف بعض القوانين الاخلاقية المتعلقة بالإحسان ، إذا امتنع القادر عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ، إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر .

وهذه الفكرة نادى بها « بنتام » ، من زمن ، فلقد قال : « القانون قصير فيما يجب عليه ، لأنه كان ينبغى أن يعد من الجرائم امتناع شخص عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر ، كما إذا مر رجل على طريق فرأى جريحاً ولم يساعده أو لم يستدع غيره لمساعدته : ومن رأى غيره قابضاً على كأس فيه سم ولم يشعره : ومن رأى شخصاً وقع فى ومدة لا يستطيع الخروج منها بنفسه ولم يأخذ بيده . فى مثل هذه الأحوال يجب أن يتدخل القانون بأن يضع عقوبة تشين من ارتكبها أو يضمنه فى ماله بالضرر الذى يمكن إزالته . »

وحتى يضع المشرع هذا القانون ، أدعو إلى تقوية الروح الدينية فى نفوس الشعب : فالقرية فى حاجة الى إصلاح وإصلاح . وهذه المناسبة تحضرنى حكاية عن الخليفة الاول أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ، رواها الغزالي فى كتابه إحياء علوم الدين ، قال : شهد شاهد عند عمر رضى الله عنه ، فقال للشاهد : اتنى بمن يعرفك ، فأناه برجل ، فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، فقال : كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الاخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيت قائماً فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل : اذهب فانتنى بمن يعرفك .

وبعد ، فإذا كانت الآراء تتعدد بتعدد الرموس ، وكلما وجد اجتماع وجد شرع ، فأساس حفظ الربط الواقع فى الاجتماع تلك الحكمة الخالدة :

« لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به ، والسلام . »

المرحلة الثانية

أمام المحكمة الابتدائية وأمام الاستئناف

لحضرة الاستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

بمجرد عرض القضية أمام المحكمة الابتدائية يتبع فيها ما يتبع في القضايا العادية . ولكن منذ سنة ١٨٨٦ حظر نشر المرافعات في دعاوى الطلاق إلا نشر نص الحكم فقط ، ويلاحظ أن طرق الإثبات المعروفة التي تجري وتحصل بجميع الطرق في الدعاوى العادية ، لها بعض الخصائص في دعاوى الطلاق ، فلا يؤخذ باعتراف من أسندت إليه وقائع تكون سبباً للطلاق ، فلا يعتبر دليلاً كافياً لاحتمال أن يكون هناك تواطؤ بين الزوجين على الطلاق ، بل يجب تحقيق هذه الوقائع للثبوت من صحتها . كما أن شهادة الأقارب والخدم يصح الأخذ بها في إجراءات التحقيق ، ولكن شهادة الفروع لا تقبل . ويصح الاستشهاد بالخطابات المتبادلة بين أحد الزوجين وبين أجنبي ، ولكن يشترط أن يكون الحصول عليها بطريق مشروع ، فلا يجوز اختلاسها مثلاً .

ويجوز للقاضي رئيس المحكمة أن يتخذ إجراءات جديدة للمحافظة على حقوق وأموال الزوجين ، كما يجوز له أن يعدل القرارات السابقة التي أصدرها بهذا الشأن ، وكل هذا إذا دعت ضرورة إليه .

وطرق الطعن في حكم الطلاق هي كالطرق في القضايا العادية ، وإنما لها بعض الخصائص . فمثلاً لا يجوز تنفيذ حكم الطلاق فوراً ، كما لا يجوز لمن صدر ضده الحكم أن يقوم بتنفيذه قبل صيرورته نهائياً ، وذلك بأن ينتظر انتهاء مواعيد الطعن المقررة قانوناً .

المرحلة الثالثة

بعد صدور الحكم النهائي يجب نشره وإعلانه بالصحف ، كما يجب تسجيله والتأشير به على هامش عقد الزواج . ويلاحظ أن أثر الحكم بالطلاق يكون من يوم صدوره والنطق به .

آثار الطلاق

تترتب على صدور الحكم بالطلاق آثار كثيرة ، منها ما يرجع إلى الزوجين ، ومنها ما يرجع إلى أولادهما ، ومنها ما يرجع إلى أموالهما : وسنذكر بإيجاز أهم تلك الآثار .

فالذي يرجع إلى الزوجين ، هو أن الزواج ينقضى وينحل ويعسود كل من الزوجين إلى الحالة التي كانا عليها قبل الزواج ، فيحمل كل منهما اسمه الخاص ، ويجوز لكل منهما التزوج بآخر مع ملاحظة انقضاء عدة المرأة ، كما يجوز لهما أن يتزوجا من بعضهما ثانياً . وتنقضى التزامات الزوجية والاتفاقات المالية الخاصة بنظامهما المالي ، كما تسقط الحقوق المالية وحقوق الانتفاع بأموال الآخر بالنسبة لمن صدر ضده الحكم ، إلى آخر ذلك .

وأما بالنسبة للأولاد ، فالطلاق لا يؤثر في حالتهم ، فهم يعتبرون أولاداً شرعيين ، ولا تسقط حقوقهم المالية نحو والديهم ، فنجب عليهما نفقتهم وكسوتهم وتربيتهم وتعليمهم ، كما لا تسقط سلطة الوالدين ولا ولايتهم عليهم . وتكون حضانتهم عادة لمن صدر لصالحه حكم الطلاق . ومع ذلك إذا قضت مصلحة الأولاد أن تجعل حضانتهم للزوج الآخر أو لأجنبي ، وللقاضى مثل ذلك بالنسبة لإدارة أموال الأولاد .

الانفصال الجسمانى

الانفصال الجسمانى هو أن يعيش كل من الزوجين بعيداً عن الآخر ومستقلاً . وقد بينا فيما سبق أن هذا ما كانت تنجأ إليه الكنيسة من لا تجيز الطلاق .

ولما أن شرعت الدولة (في فرنسا) الطلاق في القانون المدني ، كان قد ألغى الانفصال الجسائي ، ولكنه أعيد ثانية على اعتبار أنه نوع من تهديئة خواطر الزوجين ، حتى يتبصروا في عاقبة أمر الطلاق قبل الإقدام عليه ، فيصطلحا ويعوا إلى عشرتهما السابقة .

ولكن التجارب أثبتت عدم صحة هذا الرأي نظرا لما شوهد أن حياة الانفصال الجسائي هي حياة نفاق وشقاق أشد من حياة الزوجية ، وربما تكون سببا (بل هو الواقع) لفساد الأخلاق ، لما يشعر به كل من الزوجين من حرية واستتار .

وأسباب الانفصال هي عين أسباب الطلاق ، ولا بد من دعوى ترفع أمام القضاء ليصدر به حكم . وتختلف إجراءات دعوى طلب الانفصال الجسائي عن دعوى الطلاق اختلافا قليلا .

ولا يترتب على - حكم الانفصال الجسائي - انقضاء الزوجية ، بل تبقى جميع التزامات الزوجية ما عدا المساكنة منها . ولكل من الزوجين أخذ ماله يستقل به .

وينتهي الانفصال الجسائي بموت أحد الزوجين ، وبالطلاق لأسباب جديدة غير أسباب الانفصال ، وبالصلح ، وبانقلاب الانفصال إلى طلاق إذا مضى على الانفصال ثلاث سنوات بلا صلح ، ويصدر الطلاق بناء على طلب أحد الزوجين ، ولا يحتاج هذا الطلب إلى إجراءات كإجراءات دعوى الطلاق .

الطلاق في الفقه الاسلامي

الطلاق في الفقه الاسلامي هو حل رباط الزوجية الصحيحة في الحال وفي الاستقبال بعبارة تفيد ذلك ، أو من القاضي بناء على طلب الزوجة .

والطلاق نوعان : رجعي وهو الذي يجوز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بدون عقد ومهر جديدين ، وبائن والبائن نوعان : بائن بينونة صغرى وهو الذي لا يجوز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته إلا بعد عقد ومهر جديدين ؛ وبائن

يترتبة كبرى وهو الذى يحتاج فوق ذلك إلى أن تزوج المرأة زوجها آخر وتطلق منه وتنتهى عدتها ثم تعقد على زوجها الاول عقدا جديدا بمهر جديد .

والطلاق من حيث العبارة صريح وكناية . وأحكام الطلاق مذكورة فى جميع كتب الفقه بإسهاب فلا داعى للإطالة بذكرها . والذى يهمنا هو أن الطلاق فى الفقه الإسلامى يختلف كثيرا عن التشريعات الأخرى تمام الاختلاف . ونحن نتعرض هنا فقط لذكر بعض أحكام لقوانين صدرت أخيرا فى موضوع الطلاق حيث الجارى عليه العمل بالمحاكم الشرعية هو مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . ولأسباب كثيرة دعت الحكومة لأن تأخذ بعض أحكام الطلاق من المذاهب الأخرى وتصدر بها قانونا ألزمت به المحاكم الشرعية فى اتباعه ، وتتلخص هذه الأحكام فيما يأتى :

- (١) لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه لا غير .
- (٢) للقاضى أن يفرق بين الزوجين بناء على طلب الزوجة لغيبه الزوج ولكن بشروط خاصة .
- (٣) لا يقع طلاق السكران والمسكره .
- (٤) الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا طلاقا واحدة .
- (٥) كنايات الطلاق وهى ما تحتل الطلاق وغيره لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .
- (٦) يجوز للقاضى أن يفرق بين الزوجين للضرر بناء على طلب الزوجة ولكن بشروط خاصة . وهذا التفريق يكون طلاقا بائنا .
- (٧) يجوز للقاضى أن يطلق على الزوج زوجته لغيب الزوج ، ولكن بشروط خاصة .

ولمى هنا ينتهى بحثنا الموجز فى أحكام الزواج والطلاق فى الفقه الإسلامى وبعض الشرائع الأخرى . وسنبداً ببحث جديد خاص بموضوع المعاملات فى كل من الفقه الإسلامى والتشريعات الأجنبية بمناسبة مشروع القانون المدنى المعروض الآن بالبرلمان . وموعداً بذلك قريبا .

الدين يسر لا عسر

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب

المدرس بمعهد القاهرة

يخيل إلى أن بعض الداعين إلى الدين ، والقائمين بحمل رسالته ، هم السبب الأول والآخر ، في تنفير الراغبين فيه ، بما يصورون لهم من أنه تكليف كله مشقة ، وفرائض أغلبها يرجع إلى الإغناات والحرص . . . مع أن المتتبع لأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهدايته لقومه ، وتعليمه لصحابته ، ونهيه في مناسبات مختلفة عن المبالغة الداعية إلى السأم والملل ، يعتقد تمام الاعتقاد أنه « يسر لا عسر » . وإذا كان هنالك من التكاليف ما يشتمل على المشقة نوعاً ما ، فإن ذلك منوط بالاستطاعة ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وهذا هو السر في أن الناس يتفاوتون عند الله سبحانه وتعالى — يوم القيامة — في الدرجات والمنازل . ولعله معنى قول الصادق المصدوق « فاكفوا من العمل ما تطيقون » . وقد رأينا القرآن الكريم يعنى الاعمى والمريض والأعرج والشيخ الفاني وذوى العاهات ومن لا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال ، من الجهاد . كما رأينا أنه لا يجعل إنفاق الرجل على أهله ومن هم في عياله إلا مقدراً بحسب استطاعته ، ومرتبلاً بما يتسع له ماله . وليس ذلك خاصاً بهذين النوعين من الواجبات على المسلم ، ولكنه يجعل الأمور — دائماً أبداً — في حدود الطاقة ، وفي نطاق القدرة . وهام أولاء صحابة النبي رضوان الله عليهم أرادوا أن يحاكموه في « صوم الوصال » فلم يقرّهم على ذلك ، ونهاهم أعنف النهي وأشدّه ، مبيناً لهم أنهم لا يطيقون ما يطيق ، لأن له من الخصوصيات النفسية والروحية ما يجعله كأنما يبيت يطعمه ربه ويسقيه . وربما كان في هذه الحادثة نفسها ما صح عن بعضهم من أن زوجته اشتكت منه — إلى جانب هذا — أنه لا ينام ، ولا يباشر عملاً من أعمال الدنيا ، ولا يقوم

بشيء من خدمة تناط به ، أو تطلب منه ؛ ولهذا كانت دهشته صلى الله عليه وسلم وسؤاله : « ومن يعمل له ؟ » ، فقال له أحدهم : كنا يا رسول الله تكفيه مؤنة ذلك . فقال : « كلكم خير منه ... » . وقد نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمرو لما علم عنه أنه يقوم الليل ويصوم النهار بقوله : « صم وأفطر ، وقم ونم وأت أهلك . ١١ » . وفي حادثة تطويل الإمامة في الصلاة يقول للمطيل : « أفئتان أنت ، أفئتان أنت ، أفئتان أنت » .

وقد يقول قائل : إن ذلك حيث ابتدأت الدعوة والإسلام — حينئذ — غريب عن العرب ، فلم تكن مهمته سوى تأليف القلوب ، وتوحيد الصفوف ، وجمع الكلمة : ولذا كانت التشريعات — على سنة النشوء والتطور — تدريجاً ، كما في تحريم الخمر حيث لم ينه عن ثمرها طرفة واحدة ، بل تدرج إلى ذلك بالوسائل والطرق التي لا تجعل النهي عنها مخالفاً للطبائع والفطر .

والدعوة التي رسمها القرآن الكريم « بالحكمة والموعظة الحسنة » ، يجب أن يكون المتصدى لها على شيء من الباقة والكياسة ، والذوق والسياسة ، والفهم للتشريع — على هذا الوجه — حتى لا يفتقر الناس منه ، ويكون ضرره في الهداية أكبر من نفعه .

وقد لبب عمر رضي الله عنه برجل وساقه إلى النبي عليه السلام ، لأنه استمع إليه يقرأ آية على خلاف ما تلقى هو .

وانظر كيف كانت رحابة صدر الرسول الأعظم ، وسروره وبشره ، وفرحه واعتباطه بهذين المتخاصمين : اقرأ يا فلان .. اقرأ يا فلان ، ويعقب على قراءة كليهما بقوله : هكذا نزلت . ثم يقول « نزل القرآن على سبعة أحرف » ، ... وفي هذا مثل رائع من السلوك الذي يجب أن يسلكه الداعي إلى الله ، أما العنف والشدّة ، والحق وضيق العطن ، وما أشبه ذلك مما يفر الناس ويجهلون شيئا وأحزاباً ، فإنني أعتقد أنه ليس من الدين في شيء .

على أن التكاليف تهدف إلى كبح النزوات ، وقمع الاطماع ، وإطفاء نيران الحزازات ، وجعل الترابط بين الأفراد والجماعات قائماً على الحب والتآلف ،

والمعونة والتكاتف... وللدين معالم ينتهى إليها الضال ، ويلقى عصاه عندها المسترشد ، والحلال بّين والحرام بّين ، وما بعد كتاب الله وسنة رسوله إلا أن تخضع الرقاب ، وتذعن للحكمة وفصل الخطاب....

ولا تنكر أن القانون السماوى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، إنما تنكر التطبيق ، فإنه لا يحمل بالأريب اللبيب أن يقوم فى حلقة من حلقات العوام لا تعرف أركان الإسلام الضرورى ليفسر لها معنى قوله سبحانه : « ثم استوى على العرش » : أو يتحدث متحدث عن مهارات السابقين فى حقيقة الجن والملائكة ، بين قوم لا يعرفون فرائض الوضوء التى لا بد منها لتصح الصلاة ، أو يضنى إنسان فؤاده فى أن صفات الله عين ذاته أو غيرها لمن يدينون بتعدد الأرباب.

وإذا كان الشاذى فى الكتابة يتبدى بحروف الهجاء ، فإن للدين أوليات يتدرج منها المتدينون ، ويعبرها المسلمون . وإذا كان الطبيب لا يعالج المريض إلا بالدواء الذى تسيغه أمعاؤه ، وتحمله معدته ، فإن الواقع المرشد يجب أن يكون كذلك . ولا نجد نهجه صلى الله عليه وسلم تعدى قوله « فقاربوا وسددوا » . وكأنه فى الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ، كان يتنبأ بما سيكون ، لأن الإسرائيليات التى احتشدت بها بعض الكتب ، واحتفلت لها بعض العقول ، وتناقلها - بعد ذلك - حثالات الأجيال ، كحاطب ليل يجمع الدق والجزلا ، تجعلنا نأسف الأسف كله إذا تصورنا كيف أننا نستعرض فى خيلتنا دعاة ومصلحين فلا نكاد نجد اثنين يتفقان على محجة واحدة ، أو يتلاقيان على مشروع سواء . وبهذا تخلفنا عن قافلة الزمن ، وتأخرنا عن ركب الحياة . . . وصدق الله العظيم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

سعد الدين التفتازانى

٧٢٢ — ٧٩٢ هـ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الازهر إلى المعهد العلى بأم درمان

نشأته وتصرفه : هو العلامة مسعود بن عمر ، ولد فى تفتازان إحدى قرى خراسان الكبرى ؛ وأخذ العلم عن أكابر العلماء فى عصره ، كمضد الدين الأيجى وقطب الدين الرازى ، وطار ذكره ، ورحل إليه الطلبة ، وصنف (الريحانة) وفرغ منها فى سنة ٧٢٨ وعمره حينئذ ستة عشر عاما ، ثم فارق بلده ، ورحل على عادة العلماء فى تلك العصور ، ونزل كثيرا من البلدان ؛ ونستطيع أن نستخلص من التواريخ التى ذكروها لمؤلفاته ، والبلاد التى ألفت فيها ، طريقة رحلاته : فهو قد نزل أولا (هراة) وألف فيها كتاب (المطول) سنة ٧٤٨ ، وأتم المختصر سنة ٧٥٦ هـ ، وانتقل من هراة إلى (خوارزم) وألف فى هذه الحقة (شرح التوضيح سنة ٧٥٨) و (شرح العقائد سنة ٧٦٨) ثم عاد إلى هراة ، وألف (فتاوى الحنفية سنة ٧٦٩) ثم عاد إلى خوارزم ، وألف (حاشية المضد سنة ٧٧٠) ومنها رحل إلى سرخس وفيها ألف (مفتاح الفقه سنة ٧٧٢) ثم عاد إلى خوارزم وألف (رسالة الإرشاد سنة ٧٧٤) ، وذهب بعد ذلك إلى سمرقند حيث ألف (المقاصد وشرحه سنة ٧٨٤) ، ثم عاد إلى سرخس ، وألف (شرح تلخيص المفتاح سنة ٧٨٦) وعاد إلى سمرقند ، وألف (حاشية الكشف سنة ٧٨٩) بظاهر سمرقند . ويختلف المؤرخون بعد ذلك ؛ ف يرى جماعة منهم أنه مات بسمرقند ثم نقل إلى سرخس بعد ثلاثة أشهر ، ويذكر (خواندمير) أن المقام استقر بالتفتازانى فى خوارزم .

ونلاحظ من هذا السرد لكتبه أنه شرح التلخيص للخطيب القزويني ثلاث مرات : في سنة ٧٤٨ و ٧٥٦ و ٧٨٦ ، والذي نعرفه أنه شرح تلخيص المفتاح في كتابيه المطول والمختصر ، وأما كتابه الثالث في البلاغة فهو (شرح القسم الثالث من المفتاح) فلعل ما ذكر في سنة ٧٨٦ هو هذا الكتاب . كما يبدو أن هذه الرحلات كان سببها — مع شغفه بالمعرفة — سوء حاله في بلده : فإنه كان يشكو مر الشكوى في مقدمات كتبه ، ومن ذلك ما ذكره عن المختصر ، فقد قال إنه ألف كل سطر منه في بلد ، قال في مقدمته : « فانتصبت لشرح الكتاب على وفق مقترحهم ثانيا ، ولعناني العناية نحو اختصار الأول »^(١) ثانيا ، مع جمود القريحة بصير البليات ، وخمود الفطنة بصرصر النكبات ، وتراعى البلدان في والأقطار ، ونبو الأوطان عني والأوطار ، حتى طفقت أجوب كل أغبر قائم الأرجاء ، وأحرر كل سطر منه في شطر من الغبراء .

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبال — عذيب يوما ، ويوما بالخليصاء
ولعله قدم بذلك الى اتصاله بحمود جاني بك ، الذي لقي في ظله الأمان ،
وقدم إليه هذا الكتاب ، وقد اتصل بتمورلنك . ويتمول (ابن عرب شاه) :
كان التفاتاني كقطب الدين الرازي من العلماء الذين اجتذبهم بلاط مغل القفجاق
الغربية .

وقد كانت رحلته الى سمرقند باستدعاء تيمورلنك له عندما استولى عليها ،
فإنه دعاه وأغدق عليه كثيرا من النعم ، وقربه من مجلسه : وفي حضرة تيمورلنك
جرت المناظرة المشهورة بينه وبين تليذه السيد الشريف الجرجاني .

عصره عاش السعد في القرن الثامن الهجري ، وهو عصر ركبت فيه ريح
العلم ، وقبل الابتكار في التأليف ، وأصبحت الكتب تدور حول ما ألفه
القديسي ، شرحا وتحشية وتقريراً ، واختصاراً . وليس معنى هذا أن هذا
العصر لم يكن فيه نابغة ، بل كان فيه جماعة من الأفاضل ، وحسبنا فيلسوف
العربية ابن خلدون : ولكن معناه أن الهمم كانت متقاصرة : ولقد كان العلماء
الاعلام يشكون من خمود جذوة العلم : وسعد الدين نفسه يحدثننا عن ذلك فيقول :

(١) يريد بالأول "الشرح الكبير وهو المطول" .

« ثم رأيت الجمع الكثير من الفضلاء ، والجم الغفير من الأذكياء ، يسألونني
صرف المهمة نحو اختصاره — يريد المطول — والاقتصار على بيان معانيه ،
وكشف أسرارهِ ، لما شاهدوا من أن المحصلين قد تقاصرت همهم عن
استطلاع طوابع أنوارهِ ، وتقاعدت عزائمهم عن استكشاف خبيثات أسرارهِ .
ثم يقول : « وإن هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالاً بلا أثر ، وذهب
رواؤه فعاد خلافاً بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح ، وسالت
بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح . »

ومع أن هذا ترديد لما قاله الشيخان الجليلان عبد القاهر والسكاكي ، ومع
أننا نقوله الآن ، إلا أنني أعتقد أن أقرب هذه الأقوال إلى الواقع هو قول السعد :
فإن أقل ما يوصف به عصره هذا الوصف .

أسلوبه وطريقته : كانت طريقة السعد في التأليف والجدل والمناظرة ، طريقة
المناقشة حول الألفاظ ، وتحقيق مدلولاتها ، وإيراد الاعتراضات والأجوبة
حول المسائل العلمية ، وهو من العلماء الذين غلبت عليهم طريقة الفلسفة والمنطق ؛
وتكاد تكون مؤلفاته على اختلاف أنواعها صورة لهذه العقلية المنطقية : وقد
كان لهذه الطريقة أنصار كثيرون في عصر السعد وبعد عصره ، كما كان لها عظيم
الإجلال والتقدير ، ولا يزال كثير من علمائنا يراها العلم كل العلم ، غير أن ابن
خلدون لم تعجبه هذه الطريقة ، كما لم تعجب كثيرين غيره ؛ فقد جاء على لسان
بعض من ترجموا له ، بعد أن ذكر أنه كان يدرس في الجامع الأزهر ، جاء على
لسانه هذه الفقرة : « كان يسلك في إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالغزالي والفخر
الرازي ، مع الإنكار على الطريقة المتأخرة التي أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم
من التوغل في المشاحة اللفظية ، والتسلل في الحدية والرسمية اللتين أثارهما العضد
وأتباعه في الحواشي عليه ، وينهى الناقل غضون إقرائه عن شيء من هذه الكتب
مستنداً إلى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم في هذا الفن على
خلاف ذلك ، وأن اختصار الكتب في كل فن ، والتقييد بالألفاظ على طريقة
العضد وغيره ، من محدثات المتأخرين ، والعلم وراء ذلك كله . »

والحق أنني لا أفهم معنى لأن يأخذ الجم الغفير من العلماء في تخريج تعبير

للسكاكى أو للخطيب أو غيرهما ، حتى ليوجهوا تقديمه وتأخيريه وحذفه وذكره كأن ماجاء فى هذه المؤلفات من النصوص الأدبية التى يعنى بنقدها وتوجيهها ، ثم يطول حول ذلك الجدل والمناقشة والمناظرة ، وقد نصل فى النهاية الى أن المؤلف لم يقصد الى شىء مما ذهبوا اليه ، وإنما هى الشهوة الجامعة فى مصنع الكلام : وصدق ابن خلدون : فإن العام وراء ذلك كله .

أما أسلوبه فهو أسلوب أعجمى ألكن اللسان ، عقدت الفلسفة تفكيره ، وشاب المنطق تعبيره ، وظهر ضعف عصره الأدبى فى كتابته ، فنراه يكثر من التلبيح والتضمين والتورية والجناس ، والاستعارات المزدولة ، والسجع البارد الممجوج : على أنه لا يخلو فى بعض الأحايين من لمحات أدبية طريفة ، انظر إليه وقد ثقل فى التعبير ، وأسرف فى حشو أسلوبه بالمصطلحات ، قال فى مقدمة المختصر : نحمدك يا من شرح صدورنا لتلخيص البيان فى إيضاح المعانى ، ونور قلوبنا بلوامع التبيان من مطالع المثاني ؛ ونصلى على نبيك المؤيد لدلائل إعجازه بأسرار البلاغة ، وعلى آله وأصحابه المحرزين قصبات السبق فى مضمار الفصاحة والبراعة .

ويسمون هذا حسن ابتداء ، وبالنأمل فى هذه العبارات القصيرة نجد أنه ذكر خمس كتب : التلخيص ، والإيضاح ، والتبيان ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، كما نجد الشرح والبيان ، والمعانى ، والفصاحة ، والبراعة . وانظر إليه وهو يتحدث عن الذين يأخذون من كتبه ويسرقون من تأليفه ، تجده رق بعض الشىء قال : أما الأخذ والانتهاج فأمر يرتاح له اللبيب ، فللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكيف ينهر عن الأنهار السائلون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون . وهو يشير الى قول الشاعر :

شربنا وأهرقنا من الكأس جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

ومن الغريب أن أسلوبه فى المطول أسهل وأوضح بكثير من أسلوبه فى المختصر مع أنه ألف الثانى بعد الأول بثنائى سنوات ، ولذلك أرى - إذالم يكن بد من دراسة السعد فى الأزهر - أن يستعاض عنه بالمطول فسيجد الطلاب فيه حاجتهم دون رجوع طويل الى الحواشى والتقارير . وعلى العموم فأسلوبه معقد ، ولا سيما

في علوم البلاغة، وهي التي تحتاج الى الأسلوب الأدبي المحبب الى النفوس .
ومن شعره :

طويت بإحراز العلوم ونيلها رداء شبابي ، والجنون فنون
وحين نعاطيت العلوم وشرحها تبين لي أن الفنون جنون

آراء العلماء فيه : كان للسعد في عصره منزلة عظيمة ، وكان من شرف العالم أن ينتمى إليه ، بل كان علماء الروم - فيما بعد - يجعلون من جملة أوصاف كبار علماءهم أنه كان يميل إلى ترجيح جانب السعد ، أو إلى ترجيح جانب السيد الشريف . وقد قرأ ابن خلدون ، وهو في مصر مؤلفات السعد وآثى عليه في مقدمته ، فقال : « ولقد وقفت على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثناءها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكيمة ، وقدا عالية في سائر الفنون العقلية ، والله يؤيد بنصره من يشاء . »

وترجم له ملازاده فقال : « أستاذ العلماء المتأخرين ، وسيد الفضلاء المتقدمين ، مولانا سعد الملة والدين ، ومعدل ميزان المعقول والمنقول ، مفتاح أغصان الفروع والأصول . »

وفي ترجمة الشوكاني : « متفرد بعلومه في القرن الثامن ، لم يكن له في أهله نظير فيها ، وله من الحظ والشهرة والصيت في أهل عصره فمن بعدهم مالا يلحق به غيره ، ومؤلفاته قد طارت الى جميع البلدان ، وتنافس الناس في تحصيلها . »

وفي دائرة المعارف الإسلامية للقرن العشرين في ترجمته : « حجة مشهور في البلاغة والمنطق وما وراء الطبيعة والكلام وغيرها من العلوم ، »

الى الاستاذ الاكبر

« بمناسبة سفر البعوث الثقافية ، إلى الأقطار الإسلامية ،

نغنت بمأمون — فأغنت — فضائله
وما الشعرُ في روض الشفاء ، وهذه
سل الأزهر المعمور ، ينبئك أنه :
وأصبح مأمونا على العلم والهدى
هو المجد والإسلام ، فاعمل موفقا
فلا الدهر يمحوه ، ولا جحد جاحد
وقد شملتنا من يدك كوارف
توخيت فيها الحق والعدل ، فالتقى
إذا الحق حيطت بالوفاء سبيله
وفيك ضمان أيد الفعل عهد
فأنت محصيه ، وما أنت قائله ؟
حمائم تدعو به ، وعنادله ؟
تجلت دياجيه ، وقرت كبلابه
وقد كاد يلويه عن الرشد باطله
فبلغد والتاريخ ما أنت فاعله
ولا بحلى الأشعار يزدان عاطله
هي الغيث وافت بالسعود نحايه
بشكر محروم النوال ونائله
فحرزه راضى ألفؤاد وآمله
ستغمرنا آلاؤه وفواضله

فيا رجل الإسلام في حين تلتقى
زاهت راية الفاروق فادعم ظلالها
حبا الدين والدنيا شبابا ونائلا
وحولك أجناد إذا ما نثرتهم
شباب وشيب ثقّف الدين منهم
بيمينك يغزون الوجود مطالعا
سنرضيك إخلاصا ، فإنك مخلص
أواخره جياشة ، وأوائله
بروح من الإسلام تزهو تخمائله
وقام بأعباء العروبة كاهله
نظمت خميسا لا تُبارى مقاوله
إذا نزلوا وردا تطيب مناهله
فيشرق داجيه ، ويخضر ماحله
ومن يصل الإسلام ، فالله واصله

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردّها

لحضرة الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل العاشر

أقسام الصحيح ودرجة أحاديث البخارى ومسلم

جاء في مقدمة ابن الصلاح ص ١٢ :

أعلى أقسام الصحيح هو الذى يقول فيه أهل الحديث كثيراً : صحيح متفق عليه ، يطلقون ذلك ويعنون به اتفاق البخارى ومسلم ، لا اتفاق الأمة عليه ؛ لكن اتفاق الأمة عليه لازم من ذلك ، وحاصل معه ، لاتفاق الأمة على تلقى ما اتفقا عليه بالقبول . وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته ، والعلم اليقيني النظرى واقع به . . . هـ .

وقال أيضا فى ص ١١ :

قال الحافظ أبو نصر الوايلى السنجرى : أجمع أهل العلم ، الفقهاء وغيرهم ، على أن رجلا لو حلف بالطلاق أن جميع ما فى كتاب البخارى مما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قد صح عنه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاله لاشك فيه - أنه لا يحنث ، والمرأة بحالها فى حبالته .

وجاء فى حجة الله البالغة - الجزء الأول ص ١٠٦ :

أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فىهما من المتصل

المرفوع صحيح بالقطع ، وأنها متواتران إلى مصنفيهما ، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع ، متبع غير سبيل المؤمنين . ٥١ .

وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر ناشر كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ

ابن كثير ص ٢٢ :

الحق الذى لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين ، ومن اعتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر ، أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها ، ليس فى واحد منها مطعن أو ضعف ، وإنما انتقد الدارقطنى وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث ، على معنى أن ما انتقده لم يبلغ فى الصحة الدرجة العليا التى التزمها كل واحد منهما فى كتابه ؛ وأما صحة الحديث فى نفسه فلم يخالف أحد فيها ، فلا يهولنك إرجاف المرجفين ، وزعم الزاعمين ، أن فى الصحيحين أحاديث غير صحيحة : وتبغ الأحاديث التى تكلموا فيها وانقدها على القواعد الدقيقة التى سار عليها أئمة العلم واحكم عن بينة ، والله الهادى الى سواء السبيل . ٥١ .

وقال الحافظ ابن كثير فى كتابه اختصار علوم الحديث ص ٢٣ :

(حاشية) ثم وقفت بعد هذا على كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه : أنه نقل القطع بالحديث الذى تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة ؛ منهم القاضى عبد الوهاب المالكى ، والشيخ أبو حامد الإسفرائينى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى ، والشيخ أبو إسحق الشيرازى ، من الشافعية ، وابن حامد ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو الخطاب ، وابن الزاغونى وأمثالهم ، من الحنابلة ؛ وشمس الأئمة السرخسى ، من الحنفية .

قال : وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم ، كابن إسحق الإسفرائينى وابن فورك .

قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ، ومذهب السلف عامة . .

الفصل الحادى عشر

صحيح الإمام البخارى وما قيل فيه

جاء فى مقدمة ابن الصلاح ص ٨ :

فقد روينا عن البخارى أنه قال : ما أدخلت فى كتاب الجامع إلا ما صح ، وتركت من الصحاح لملال الطول . ١ . وقد قال البخارى : أحفظ مائة ألف حديث صحيح وماتى ألف حديث غير صحيح . وجلة ما فى كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة ، وقد قيل إنها بإسقاط المكررة أربعة آلاف حديث . ١ .

وجاء فى طبقات الشافعية الجزء الثانى ص ٦ :

عن محمد بن حمدونة يقول : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح . وفى ص ٧ :

قال شيخنا أبو عبد الله الحافظ : روى من وجهين ثابتين عن البخارى أنه قال : أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى . ١ .

وأقول أنا : قد عددت أحاديث البخارى الأصلية (جامع مسانيد صحيح البخارى) فوجدتها ٢٦٠٥ بغير المكرر .

تذنيه

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم . وردت هذه الآية فى هذا البحث فى العدد السابق ص ٨٥٨ خطأ ، وصححها ما ذكر هنا .

أبو القاسم الزمخشري

٥٣٨ هـ

فضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المدرس بمعهد القاهرة

حدائق أن أكتب فى الزمخشري ، تفسير الكشاف ، : فقد بدأت أقرأ فيه بشيء من التروية ، وكان يحفزنى اليه علمى بما لصاحبه من خولة فى البيان ، وإمامة فى البصر بتصوير الفسرآن . فكنت أجد اليه حينا فى النفس ، وطربا فى القلب ، حتى استطعت أن أخلص للنظر فيه من بعض تلك الشواغل التى لاتهادن ، وذلك الفضول الذى لا يكاد يفارق : فإذا الأسلوب الموثق ، واللفظ الرائق ، والعبقريّة الخارقة : وأحببت أن أتقدم بتصوير ما أجد لقراء مجلة الأزهر الغراء على أن أهيج فيهم مشاطرة هذا الإعجاب ، والغوص على در ذلك الكتاب : ولكنى آثرت أن أبدأ بالتصوير للمؤلف قبل تقديم المؤلف ، لنصح الرغبة فيما قصدت اليه ، من صادق الإقبال عليه .

قال زمخشري محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري الإمام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، وأحد رجلين قيل فيهما : لولا الأعرجان ، لضاعت بلاغة القرآن . وثانيهما يوسف بن أبى بكر السكاكى .

والزمخشري من زمخشري ، إحدى قرى خوارزم من بلاد المعجم . وقد تعجب حين تعلم أن أولئك الأعاجم هم الذين تولوا اللغة العربية ، وحاطوا الشريعة الإسلامية فرعوها حق رعايتها .

وقد ألهب فى هؤلاء الأعاجم جذوة النشاط شعورهم بالنقص العنصرى فى نظر العرب ، وحرصهم على أن يكونوا موضع التقدير من الخلفاء والكبراء ، فوصلوا الليل بالنهار ، وجابوا فى العلم الفياثى والقفار ، وكان منهم مفاخر الإسلام والمسلمين ، من أمثال الإمام أبى حنيفة ومالك والشافعية وغيرهم .

والصولي والجاحظ وابن العميد والصاحب والخوازمي ، وأمثال سيبويه وعبد القاهر والسكاكي ، وكثير جدا ممن رفعوا شأن العلم والإسلام .

ونشأ الزمخشري في نهاية القرن الخامس وأوائل السادس ، فهو من أديباء العصر العباسي الرابع ؛ ذلك العصر الذي ظهرت فيه ثمار آداب اللغة ، وكانت قد ازدهرت في العصر العباسي الثالث ، وتسابق الناس فيه إلى العلم والآداب ، وكثرت المؤلفات ، وانتشرت المدارس ، وولدت علوم جديدة ، وظهرت مصنفات عظيمة ، أهمها كتب النحو والصرف والبيان التي كان عليها معول العلماء في نشر هذه الفنون ونقلها إلى من بعدهم ، وتفانى في التحصيل رجال لا تليهم تجارة ولا بيع ، فأخصبت اللغة العربية ببحوثهم ، ونضرا الله البيان والإيمان بهم : كالإمام عبد القاهر الجرجاني واضع البلاغة ومؤسس قواعدهما ، بكتايبه العظيمين ، وإمام النحو . توفي سنة ٤٧١ . والتبريزي شارح الحساسة والمعلقات وغيرهما ، توفي سنة ٥٠٢ ، والراغب الأصفهاني مصنف غريب القرآن ومؤلف المحاضرات ، توفي سنة ٧٠٢ ؛ والحريري والميداني وابن الشجري والإمام الزمخشري والإمام السكاكي والعكبري وابن الأثير والصفاني وغيرهم ممن أعلوا منار العلم والآداب إنما إعلام بما دونوا ، وبمن علوا . أحسن الله جزاء الجميع .

ذلك هو العصر الذي كان الزمخشري أحد رجاله وخريجيه ، ونشأ الزمخشري فيه وهو على غاية الذكاء وتمام الاستعداد ، ومنتهى الاجتهاد ، مع دين قوي ، وعقل سليم ، فكان إماماً يشار إليه ، وعلمياً يعشى إلى ضوء هدايته . صنف فجمع من جواهر العلم ودرره ، وهذب من أصول النقد والبيان ، وفتح من أكام الأزهار ما لا يهدى إلى مثله إلا مثله ، وكتب فبذ الكتابين ، وأعرق في تصحيح البيان بما أعيان على المعاصرين . وقال شعرا إلا أنه لم يكن فيه من المبرزين . كما هو شأن العلماء الأفذاذ .

وقد عرّف بشيء من تاريخه المؤرخ ابن خلكان فقال : « الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره غير مدافع ، تشد إليه الرجال في فنونه ، أخذ الأدب عن أبي منصور نصر ، وصنف التصانيف البديعة ، منها الكشف في تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله ، والمحاجاة بالمسائل النحوية ، والمفرد والمركب في العربية ، والفاثق في تفسير الحديث ، وأساس البلاغة

فى اللغة ، ورييع الأبرار ، ونصوص الأخبار ، ومتشابه أسامى الرواة ، والنصائح
الكبار ، والنصائح الصغار ، وضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض ، والمفصل
فى النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، والآنموذج فى النحو ، والمفرد والمؤلف ،
ورموس المسائل فى الفقه ، وشرح أبيات سيبويه ، والمستقصى فى أمثال العرب ،
وسوائر الأمثال ، وديوان التمثيل ، وغير ذلك . وكان قد سافر الى مكة حرسها الله
وجاور بها زمانا فصار يقال له : جار الله لذلك ، وكان هذا الاسم علما عليه . .
انتهى المراد من عبارة ابن خلكان .

وفى كلام الزحشرى فى مقدمه الكشف مايدل على أنه كان مرجعا فى حل
الغامض ، وموتلا لدراسة آى الكتاب على النهج الذى رسمه ؛ فهو يقول هنالك :
ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفقه العدلية ^(١) الجامعين بين علم العربية
والأصول الدينية كلما رجعوا الى فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من
الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطبروا شوقا الى مصنف يضم
أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا الى مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق
التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة
والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد : والذى حدانى على الاستعفاء
على على أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض
العين ^(٢) ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر همهم
عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا عن أن تترقى الى الكلام المؤسس على على
المعانى والبيان . . . الخ .

فهذه عبارة تبين ما كان للرجل من إحاطة بغرائب العلم ، ولا سيما فى على
المعانى والبيان ، وتقاصر همم الأقران عن مجاراته .

والزحشرى كان على جانب كبير من توثق العلاقة بينه وبين ربه ، ويتجلى لك
ذلك فيما كان من مجاورته بالبيت العتيق ، ويبدو لك ذلك فى مسلكه الوعظى الذى
سلكه فى مقاماته ، فلم يقبل أن تكون فكاهة أو هزلا كالذى عرف لغيره من المقامات

(١) هم المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أصحاب العدل لأنهم يقولون إن الله لا يقدر القبيح

ولا يخلق الشر . (٢) ما : خبر اسم الموصول السابق .

فهى مقامات جمعت من نبل المقصد وإيثار الجذ وحسن التوجيه ما دل على همة عالية ونفس كبيرة .

والزخشرى وإن كان يقول متواضعاً كما روى عنه : اقسم بالله وآياته ، ومشعر الحج وميقاته ، إن الحريرى حرى بأن تكتب بالبر مقاماته ... فإننا من الناحية الأدبية نرى أن مقامات الزخشرى قد فاقت مقامات الحريرى عراقية فى البيان وحسن السبك ، وإيثار جانب المعنى على جانب اللفظ ، لأنه أرسخ قدماً ، وأبعد فى ميدان البلاغة مدى . على أن مقامات الحريرى قد أربت على غيرها لغرائب اللغة ونفائس الأدب .

وقد وجه الزخشرى إلى ناحية الامتياز فى مقاماته وهو يقدمها إلى القارىء فقال : وتوصيتك ألا تمكن منها إلا من يوازيك فى صفك ، أو يذانيك من أولى الفضل والديانة ، وأن تربأ بهاعن أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون ولا يحسنون ، لشكون من العمال يقول عيسى عليه السلام : لا تطرحوا الدر تحت أرجل الخازير : فان العلم بنقلته يكبر بكبرهم ويصغر بصغرهم وتكذيفك ألا تتر على شيء من تلك الأجماع وغيرها من أبواب الصنعة إلا ما أملاً وجه تمكنه وثبات قدمه والاستعداد له قبل . ورده لعل أن ما سماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع . لا يملح ولا يبرع حتى يوازى مطبوعه مصنوعه ، وإلا فما قلق فى أمالكته ، ونبا عن مواقفه . فنبود بالعرام ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

هذا أسلوب جميل فى ذاته ، ومسلوك جليل فى توجيهه ، يدل على نفوذ بصر ، وصحة طبع ، وسمو عبقرية تأبى على التقاليد .

وذكروا أن الزخشرى كان مقطوع لإحدى الرجلين ، وهذا قد يكون من العوامل فى تصحيح دينه وانقطاعه للعلم وصفاء النفس ، فإن المصيبة إذا نزلت بالنفس البشرية ولا سيما إذا شوهدت شيئاً من الجمال ، فهى جديرة أن تنصرفها عن الدنيا ، وأن تجذبها إلى التماس السعادة فى متع روحية كريمة ، واتجاهات هى أخرى أن تعوض النقص الجسدى . ولعل الجاحظ كان من هذا الصنف الذى ألغى كثيراً من متع الحياة فى سبيل متعة النفس والعقل . ويذكر فى سبب قطع رجله ما تحدث به عن نفسه قال : دخلت بغداد فاجتمعت بالفقيه الحنفى الدامغانى

فسألتني عن سبب قطع رجلي ، فقلت : « دعاء الوالدة : وذلك أني كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط ، ثم أفلت وجذبتة فانتطعت رجله بلخيط ، فغضبت أمي ودعت علي بتقطع رجلي ، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخاري لطلب العلم فسمعت عن الدابة فانكسرت رجلي . وهذه الرواية تدل على ما كان من صحة إيمان الرجل وسلامة اعتقاده .

على أن الزنجشري كالكسائي كان معزليا ، وكان متعصبا لمذهب الاعتزال . وهذا المعنى صرف كثيرا من الناس عن مطالعة تفسيره والانتفاع بدرره وجواهره . وفي الحق ما كان ذلك داعيا إلى تلك العسكرة ، وما يزال الحق في مسائل الخلاف عند الله سبحانه يفصل فيه . على أنه لم يكن هناك خلاف ذو بال لو أنصروا ، ولكن شهوة الظفر والانتصار وما أحاط بمسائل الكلام من ظروف سياسية وشعر سياسية قد وسع الهرة وأبعد الشقة ، وعقد كثيرا من مسائل هذا الدين السمح . ولعمري لقد اختلف هؤلاء وهؤلاء في مسائل نهى الإسلام عن الخوض فيها ، فزل الجميع وتكبوا عن الجسادة .

الزنجشري معزلي كما قالوا ، ولكن ذلك لا يمنع أن نقرأ كلامه وننتفع بما فيه . على أن لهجة الرجل كثيرا ما تكون لهجة حق وسبيل نصح ، لا تخلو من توجيه صالح . وإصلاح قويم . فاستمع إليه وهو يناقش في تفسير « ويعدم في طينانهم يعمهون » ويقول في آخر المناقشة بعد أن خطأ رأى الخصم من ناحية اللغة :

« المعنى الصحيح ما طابته اللفظ وشهد بصحته ، والإمكان بمنزلة الأروى من النعام : ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المبجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه . والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليما من القادح ، فإذا لم يتعهد أوضاع اللغة فهو من معاهد النظم البلاغية على مراحل . »

وقد ذهب ابن خلدون مذهبا معتدلا لمن يحمده على مذاهب أولئك الكلاميين من الأشاعرة والماتريدية ، فقال وهو يتحدث عن التفاسير :

« ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف للزنجشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه كان من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجج على مذاهبهم الفاسدة حين تعرض له في آي القرآن ، فصار بذلك للباحثين من أهل السنة انحراف عنه ، مع إقرارهم برسوخ قسده فيما يتعلق باللسان

والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السلفية محسناً للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فليغتنم مطالعته لغرابته في فنون للسان .

الزحشرى كما رأيت مصنف عزيز المادة ، مبدع في العلوم اللسانية والشرعية ، ثم هو إلى ذلك كاتب بذ الأقران ، وسلم من كثير مما تورط فيه المعاصرون من طغيان المحسنات على البلاغة ، كما ترجم عن ذلك في مقدمة المقامات ، وذلك لأن الرجل كما قلت نفاذ البصيرة سليم الفطنة واسع الذرع من البيان العربي الصحيح متأثر بقوة ما يروى ويحفظ . وتستطيع أن تقرأ في كتب الزحشرى لترى كيف كان خولة بيان وقوة بلاغة يحفل أسلوبه بغزارة المعنى وقوة التأثير ، مع ما يحمل من طابع البديع وجمال الصنعة ، حتى ليخيل إلى القارىء أنه ينثر كنانة اللغة العربية بين يديه فيأخذ منها ما يحقق الغرض في وضوح وقوة ، ويخصب الأسلوب به بالجمال والروعة .

ويعجبني من ثمره قوله في خطبة الأساس وهو يشرح الباعث على وضع الكتاب: « ولما أنزل الله كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطى الجياد القرح ، كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهين على ما كان للعرب العرباء حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم والفرع إلى المقارعة بأسنة أسلهم^(١) من كانت مطامح نظره ومطامح فكره الجهات التي توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على منازم الفصحاء ، والخبرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتدوا عنه فلم يتقبلوا ، الخ .

هذا أسلوب جزل قوى بليغ مع ما يحمل من أثر الصنعة . ولك أن ترجع إلى أدب الزحشرى وكتاباته في مختلف كتبه لتظفر بمادة عجيبة وفصح نادرة ومعين فياض وبعد ، فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ؛ ولكن لا بد أن أشير قبل مغادرة البحث إلى أن للزحشرى شعرا لا يقل رصانة عن ثمره ، إلا أنه كشعر

(١) خبر كان في قوله كان الموفق

العلماء المبرزين لا يظفر بخيال الشعراء ، بل يغلب عليه المعنى العلى والحكمة
الراشدة : ولعله إلى النظم أقرب منه إلى معنى الشعر المرموق . ومن أجود شعره
قوله يصف المتقى :

إذا العيون اجتمعت في بذاذته تعلموا نواظرها عنه وتقتحمه
ما زال يستحقر الدنيا بهمة حتى ترقى إلى الأخرى به همه
فذلك أعظم من ذى التاج متكئا على النمارق محتفا به حشمه

كانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٦٧٧ هـ
بزمخشري : وتوفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ بمرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة .
نعمه الله بواسع عفوه ورحمته .

من سيرة عمر بن عبد العزيز

لما تولى الخلافة وفد إليه الشعراء لتهنئته على عادتهم ، فأقاموا بياحه أياما
لا يأذن لهم ، حتى قدم إليه عدى بن أرطاة ، وكانت له عنده مكانة ، فقابلته
جرير ، وأنشده :

يا أيها الرجل المزجي مطيته هذا زمانك ، إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمصفود فى قرآن
فلما دخل على عمر قال له : يا أمير المؤمنين : الشعراء بياحك ، وأقوالهم باقية ،
وسنانهم مسنونة . فقال : يا عدى ، ومالى وللشعراء ! ثم سأله عن الباب ، وكلما
ذكر له واحداً ، أنشد له عمر أبياتا نائية من شعره ، وأبى أن يأذن له ، حتى انتهى
إلى جرير ، قال له : أو ليس هو الفائل :

طرفتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجمى بسلام ؟
فإن كان ولا بد فليدخل هذا ، فدخل وأنشده قصيدة ، فلما انتهى منها ، قال له
أمير المؤمنين : يا جرير ، لقد وليت هذا الأمر ، وما أملك إلا ثلاثمائة درهم ، فأتة
أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية .
فقال جرير : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى .

صحائف خالدة

هذه رسالة تقع في ثمانين صفحة حسنة الطبع والإخراج وضعها الأستاذ الفاضل إبراهيم الشورى بالمفوضية السعودية بمصر ، أتى فيها على تاريخ جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود عاهل العرب العظيم في عهدنا هذا ، بسط فيها تدبيره في استرداده لملك آبائه من حوزة ابن الرشيد ، والجرأة الفائقة ، والاستبسال النادر الذى توصل بها هذا الملك العبقري إلى الفوز على خصمه .

وقد اشتملت الرسالة بعد هذا على تاريخ حياة العاهل العظيم ، وما قام به من سياسة الملك ، وتهذئة روع القبائل ، وتأمين الطرق وتيسير التبادل ، ملأ بالأدوار التى تقلبت فيها حياته المباركة من زعامة قبائل نجد الى ملك الحجاز . ولم ينس ما اقتضته هذه الأدوار من الحزم والعزم وحسن السياسة ، وبسالة المقاصد : وهى صفات رفعتة الى مستوى كبار القادة فى جيلنا الحاضر .

ولم يغفل المؤلف الفاضل ما امتاز به هذا الملك الجليل من الصفات النبيلة كالرجولة السكاملة ، والسياسة الرشيدة ، والتقوى المحمودة ، وجهه للرعية . ولم يترك أخص النواحي التى تقدر بها كفايات الملوك من إشرافه على القضاء والإدارة ، وتيسير المعيشة ، وكرمه الذاتى ، وتجرده من الغايات الشخصية .

ولم ينس المؤلف الفاضل أن ينوه بالناحية التى تهتم كل مسلم يحب أن يرى الأمة العربية تتابع تاريخها العظيم ، فتصل حاضرها بماضيها فى نشر العلم ، وتهيئة البيئة للمدينة الفاضلة ، فذكر أن أول ما اتجهت إليه رغبته تحضير البدو ، فبنى لهم القرى وساعدهم على الاستقرار ، وجدّ فى جلب المياه الى النواحي التى تفتقر إليها ، وفى تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة . وقد أدخل وسائل الانتقال بتمهيد الطرق وإدخال التلغونات الى مدن الحجاز ونجد ، والاستكثار من السيارات .

الخلاصة : أن ما يقوم به جلالة الملك عبد العزيز من الأعمال الممهدة لتحضير البوادي من أشق الأعمال ، ولكنها إزاء مهمة عالية كهيمته تتدلل صعابها مع الزمن . فرجو له عمرا مديدا ، وتأبيدا وتسديدا ، ونثنى على مؤلف هذه الرسالة القيمة التى آتقنا بهذه المعلومات الثمينة .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

عيد الجلولس الملكى السعيد

أقيمت الاحتفالات به فى جميع بلاد الدولة المصرية
وأذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
كلمة بليغة عنه بالراديو

كان يوم الخميس السادس من شهر مايو من أسعد أيام مصر، حيث تبوأ
أريكه دولتها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، فاحتفلت به الأمة
فى جميع مدنها وقراها احتفالاً لم ير له نظائر غير مثيلاتها فى كل عام. فسكنت
حيثما توجهت ألفيت الإعلام المصرية تحفّق على الدور والمتاجر، وترى سمات
البشر مرتسمة على الوجوه، يردد أصحابها أطيب التمنيات للذات الملكية، ويتذكرون
الأعمال العظيمة التى تمت فى عهده للبلاد، بما ضاعف ثروتها، ورفع من قدرها،
وزاد فى رفّته أهليها.

وبما زاد فى إظهار مواهب جلالته الفاروق، الأحداث العظيمة التى حدثت
فى أيامه، وأكبرها شأنها الحرب العالمية، وموقع مصر من ساحات القتال؛
وناهيك بما يستدعيه موقف الحياد الذى وقفته مصر من حسن السياسة، وبعد
النظر، وشدة الاحتياط، حتى مرت تلك السنوات الست التى أهلكت الحرث
والنسل فى أوروبا، ولم يمس بلادنا سوء يؤثر فى نظامها السياسى والاجتماعى،
ولا فى انزائها الاقتصادى، بل لساننا نبألغ إذا قلنا إن مصر جنت من رواج
محاصيلها ثروة أضافتها إلى ثروتها، واتضح للعالم كله أن لها مركزاً ممتازاً بين
الشرق والغرب يقتضى أن تعيش مستقلة حرة.

هذا غيض من فيض نذكره تيمناً بهذا اليوم السعيد، وقد أحصى حضرة
صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر من
مآثر حضرة صاحب الجلالة، فى كلمته النبيلة التى أذاعها بالراديو فى مناسبة هذا
العيد السعيد، ما أطلق كل لسان بالدعاء لجلالته بأن يقيه الله ذخراً لأمته، وملاذاً
للشرق بنعم برعايته.

محمد فريد وهبى